١





أحمد أبو سعد



الجزء الأول

يتناول القصة عامة والقصة العربية خاصة
منذ العصر الجاهلي حتى أواخر الدولة الأموية

منشورات دار الشرق الجديد - بيروت

الطبعة الاولى
تشرين الثاني ١٩٥٩

تمهيد

نواة هذا الكتاب في أساسه محاضرات ألقيت على طــلاب صف البكالورية ، شجّعنا على نشرها وتوسيعها ، ما رأينـاه من حاجة الدارسين عندنا إلى كتاب يجمع بـين دفتّيه أصول الفن القصصي ، ويبسط قواعده وأنواعه ، كما اصطلح عليها في الآداب الغربية ، ثم يعرض في الوقت نفسه تاريخ القصة في أدبنا عَرْضاً يبيّن خصائصها وألوانها ، ويمنحها قيمتها التي تستحقها بالاستناد الى الشواهد والنصوص ، لا إلى الاحكام المبتسرة والمتسرّعة التي شاعت بيننا مدة من الزمن خيّل الينا في أثنائها أن العرب لم يعرفوا القصص ، ولم يزاولوه بالفطرة .

وإنّ حرصنا الزائد هــذا على إيراد الشواهد والنصوص الكثيرة التي نؤيد بها رأينا بأن العرب لم يتخلفوا عن سواهم بالنثر القصصي قد جعل مادة هذا الكتاب تغزر بين أيدينا وتفيض ، مما اضطرنا إلى قسمته جزءين، تناولنا في الجزء الأول منها القصة عامة والقصة العربية خاصة منذ العصر الجاهلي حتى أواخــر الدولة الأموية ، وتناولنا في الجزء الثاني القصة العربية في عصرها

الذهبي ، عصر الف ليلة وليلة ، وسيرة عنتر ، وقصة الملك سيف وغيرها منتهين الى عصر النهضة الأخيرة .

ولست أخفي على القارىء أيّ نصب قد عانيت في إخراج هذه المحاولة التي أرجو أن تليها محاولات أخرى تستكمل ما قد فاتني ، فالتراث القصصي عند العرب منجم يومَ يُستغلّ استغلالاً يكشف عن كنوزه ، ويجمع ذخائره المنثورة هنا وهناك في مئات الكتب ومئات المخطوطات ؛ فان الباحثين لن يروا حينئذ في تراث أي أمة من الامم التي عاصرت التمدّن العربي أو سبقته تراثاً يعدله من حيث القيمة والكمية إلاّ التراث اليوناني .

أحمد أبو سعد

ما هي القصة ؟

للقصة معنيان ، أحدهما السرد والإخبار ، وهما يقومان على إتباع الخبر بعضه بعضاً وسوق الكلام شيئاً فشيئاً ، وثانيهما الفنّ الأدبي الذي يجعل لها «تركيباً معيّناً تتحرك خلاله الشخصيات وتنمو الحوادث، وتترابط العناصر القصصية على خطة مقصودة، وتدبير محكم من خارج حياة القصة نفسها ، أي بقصد من القاص وتدبيره ووعيه » .

فأما القصة بمعناها العام أي بمعنى السرد والإخبار فهي قديمة قدم الانسان نفسه ، نشأت بنشوئه وروت أحلامه وتصوراته عن الآلهة والعالم والطبيعة وما وراءها ... وأما القصة بمعناها الخاص أي بمعنى الفن الأدبي فهي وليدة القرن التاسع عشر أوما قبله ، ظهرت بظهور الطباعة ونشأت بنشوء القوميات وانتشار الصحافة ، ثم نمت وتطورت حتى غدت فنّاً أدبياً له طرائقه المختلفة وحدوده المرسومة .

ما حدود هذا الفن ؟ وما أنواعه ؟ وما أصوله التي يجري عليها وعناصره التي يتألف منها ؟

يحدد المعاصرون القصة بأنها حكاية حوادث وأعمال ، وتصوير شخصيات ، بأسلوب مشوّق ينتهي إلى غاية مرسومة ، وغرض مقصود .

وهو تحديد، على الرغم من إيجازه ، فانه ينطوي على العناصر الرئيسية التي يتألف منها هذا الفن . ففن القصص لا يستوي حتى تتوافر له عناصر يرتكز عليها ، أهمها : الحادثة ، والزمان والمكان اللذان تقع فيهما الحادثة ، والأشخاص الذين تحدث لهم أو منهم ، والأسلوب الذي تسرد به ، والغاية أو الفكرة التي تصنع من أجلها القصة ، وأخيراً الوحدة أو الحبكة التي تحيط بهذه العناصر فتجعل منها كلاً واحداً منسجماً لا اختلال فيه .

الحادثة

الحادثة هي المادة التي تتألف منها القصة ، وتستقطب عليها أجزاء الرواية. يبدعها المؤلف من خياله، أو مما وقع له في الحياة، أو عرفه بطريقة من الطرق، ويسوقها على نحو خاص ، تبدو فيه منتظمة ومرتبة ، ومرتبطة بسبب واحد ، يجمع بينها ، ويوحّد تأثيرها لتكون أبرز لفكرة القصة ، وأشد وقعاً في نفوس القراء .

وكثيراً ما تكون الحادثة هي العنصر الأهم في القصة فتسمّى القصة حينئذ قصة الحادثة أو القصة السرديّة. وفي هذا النوع من القصص تكون الحركة هي الشيء الرئيسي ، ويكون اهتمام الكاتب منصبّاً على تكديس الحوادث وتوليدها أكثر من اهتمامه برسم

الشخصيات ، أو بكلمة أخرى فإن الشخصيات تكون في هذه القصص ثانوية بالقياس إلى الحوادث، إذا اهتم بها المؤلف فبمقدار ما تعينه على تعقيد الحوادث ، وإبرازها بصورة ضخمة مثيرة ، تمتلك على القارىء لبه ، وتستأثر بإعجابه ، فـــلا يذكر عند الانتهاء منها شخصاً واحداً، وإنما هو يذكر منها فقط الأحداث ويستذكر الخوارق . والى هذا النوع من القصص تنتمي قصص المغامرات ، والمخاطرات، والحوادث البوليسية . وهذه القصص على الرغم من أنها تمثل الكثرة الغالبة في القصص العالمي ، بمــا فيها من أسلوب واضح بسيط ، وأحــداث تبعث على التسلية ، وترضي لهو القراء ولذتهم فإنها « لا تعكس قيماً فنية أو أدبيــة خاصة ، ولا يعنيها أن تتقيد بقيود الانسانية ، لأن غايتها الأولى هي الامتاع والتسلية ، ولذا فهي تسير وفق هوانا ورغباتنـــا التلقائية البسيطة ، ولا تأبه لعلمنا ، أو لفهمنا للحياة وتفسيرنا لها . »[1]

الأشخاص

يُقصد بهم كل شخصية وقعت منها أحداث ، وصدرت عنها عبارات وأفكار أدّت دوراً إيجابيــاً في القصة . يصطفي منهم المؤلف شخصية رئيسية أو أكثر ، تكون محل اهتمام القارىء في تتبعه لحوادث القصة ، وأشخاصاً ثانويين يظهرون ويختفون بحسب الخطوط أو بحسب ما يؤدون من أدوار تساعد على إبراز

١ ــ محمد يوسف نجم «فن القصة» بيروت ، ١٩٥٥ · ص ١٤٠ ·

الشخصية أو الشخصيات الرئيسية .

ثم يعمد المؤلف إلى رسم هذه الشخصيات ، فيصفها إما بطريقة الوصف المباشر الذي يحلل عواطفها وأفكارها ويدرس نفسياتها ، وإما بطريقة الوصف غير المباشر الذي يمنح فيه الشخصية فرصة التعبير عن نفسها ، فتفصح هي عن مكنوناتها بأحاديثها وتصرّفاتها .

وبمقدار ما يوفق الكاتب إلى خلق شخصياته ، وجعلها كثيفة ، حيّة ، قويّة الحضور ، تمشي على صفحات قصته كما تمشي على سطح الأرض ، وتتفاعل مع الأحداث تفاعلاً طبيعياً صادقاً ، يصل بها إلى النهاية التي يفضي بها إليها واقعها في الحياة « دون تطفل خارجي ، أو تحكم من المؤلف أو إلزام » أقول : بمقدار ما يوفق المؤلف إلى ذلك تكون قصته ناجحة ، ويكون قد نفذ إلى قلوب قارئيه ، واجتذبهم ، ووصل بينهم وبين أشخاصه وصلاً يجعلهم متحدين بهم ، غير قادرين على نسيانهم .

ولن يتيسر للمؤلف ذلك ، إلاّ إذا استبطن طوايا أشخاصه ، وتصورّهم طويلاً ، و « حملهم » قبل أن « يضعهم » ودرس نفسياتهم ، واكتنه أسرار هذه النفسيات ، ثم دبجهم في مغامرة أو درام مكسباً كلاً منهم مظهراً مادّياً ، ومانحه وزناً من اللحم والدم ، ولوناً للسحنة ، ومرونة للحركة ، وشكلاً للوجه المعبرّ الحيّ »[1] وغير ذلك مما يجعلهم متميزين بصفاتهم الحسّية ،

---

١ - تللي كورمو « فيزيولوجية القصة » مجلة الآداب عدد كانون الثاني (يناير) ١٩٥٤ ص ٧٤

أو صفاتهم المعنوية من خلق ومزاج .

على ان الشخصيات ذاتها نوعان : نوع يسميه الناقدون **الشخصية الجاهزة** ، وهي الشخصية الثابتة التي تبقى على حالها ، من البداية الى النهاية ، دون أن يحدث في تكوينها أيّ تغيّر ؛ ونوع يسمونه **الشخصية النامية** أو المتطوّرة ، وهي التي تتطور من موقف الى موقف بحسب تطور الحوادث ، ولا يكتمل تكوينها حتى تكتمل قصتها .

بقي أن نشير الى أنه كما نوّهنا في السابق ، بأن هناك نوعاً من القصص ، يعتمد الحوادث الضخمة والمفاجآت الغريبة ، من غير ما كبير انتباه للأشخاص ونفسياتهم ، كما في «قصة الحادثة» فإنّ هناك أيضاً نوعاً من القصص يعتمد الشخصيات ، ودرس نفسياتها ، وتحليلها ، ويسمونه « قصة الشخصية » تكون فيه الحوادث غير مقصودة لذاتها ، وإنما لخدمة الشخصيات ، وتوضيحها ، واظهار ما غمض من معالمها .

ومع ذلك فإن انقسام القصة إلى قصة حادثة وقصة شخصية ، لا يتمثل بهذه الحدّة . وكل ما في الأمر أن كاتباً يولي الشخصية اهتماماً أكبر ، وآخر يهتم بالحادثة .

ولكن القصة لا يمكن أن تخلو خلوّاً تاماً سواء من الشخصية الحادثة [1] وان الصلة بين الحوادث والشخصيات أقوى مما يدلل عليها ، أو يلفت الذهن اليها ، ذلك لأنها العنصران الرئيسيان

(١) عز الدين اسماعيل – الأدب وفنونه . دار النشر المصرية – ١٩٥٥ – ص ١٦٧

في كل قصة ؛ وكل قصة في الحق، ليست إلا تراكبها المستمر .

« والقصاص الحقيقي هو الذي يكون خلق الحادث وتصور الشخص عنده مرتبطين برباط المعيّة، ما دام الحادث والأشخاص يتحددان بالتبادل ، ومادام وجودهما بالذات متصلاً في الاساس »[1] وهذا عين ما تفعله تلك القصة المسّماة عند الغربيين بـ « القصة التمثيلية » وهي القصة التي تعادل في الأهمية كما يقول Muir ، بين الشخصية والحادثة ، فتعطي هذه من العناية ما تعطيه تلك .

البيئة

البيئة زمان القصة ومكانها ، وجوّها الذي تتموضع فيه ، وكل ما يتصل بهذا الجو من ظروف وعادات ، تؤثر في أخلاق الشخصيات ، وتوجه تيار الحوادث . بدونها لا يستطيع المؤلف أن يوهمنا بالحياة ، ويخلق شعورنا بالواقع . ولكي يرسم الكاتب بيئته ، ويوفق في « إحضارها » عليه أن يفهم قوانينها، ويستوعب تفاصيلها الحيّة المتفاعلة المتطورة ، وينفذ إلى جوانبها المتكاملة جميعاً ، وبكلمة عليه أن يجهد في « رؤيتها من الداخل» ثم ينتخب منها ماله علاقة بموضوعه ، فيمزجه بالأحداث ، ويصفه وصفاً حيّاً ناطقاً ، ينقلنا إلى زمان القصة ومكانها .

وكم هناك من قصص تستمد روعتها من تصويرها لبيئة من البيئات ، كقصص نجيب محفوظ ، القصاص الذي يجعل البيئة

---

(١) ملي كورمو . المصدر السابق ذكره .

شخصية من شخصيات قصته ، بل أهمها جميعاً .

الغــاية

لا بد لكل قصة جيدة من هدف تسعى إلى تحقيقه ، وغاية تصنع من أجلها . وهذه الغـاية هي **الفكرة** التي يدير الكاتب قصته كلها حولها . وهي تمثل وجهة نظره في الحياة وتفسيره لها، ونقده لأبنائها .

ولكن بعض الباحثين ينكرون أن تكون للقصة غاية إلاّ هي نفسها ؛ ويعللون رأيهم ، بأن الكاتب عندما «يلتزم» بتجلية فكرة من الفكر ، فلا بد أن «التزامه» هذا سيقوده إلى افتعال الحوادث ، وإقحام كل ما من شأنه أن يساعد على إبراز فكرته وتأييدها ، دون أن يهمه منها مــا إذا كانت مجتلبة ، أو غير طبيعية ، أو ليست نابضة بالحياة ، فيخسر بهذا فنه ، وينقلب إلى « داعية » بدلاً من أن يتصرف « كفنان » .

والحق أنها وجهة نظر صائبة ، إذا قصد بها أن لا يتخــلى الكاتب عن « فنه » في سبيل « فكرته » ولكنها إذا قصد بها العكس ، أي أن يتخلى الكاتب عن عدنه من أجل فنه ، بحجة أن الفن يجب أن لا يكون « هادماً » ، أو أن يكون هدفه لذاته، أي للمتعة والجمال . . فهي تكون عندئذ فكرة خاطئة ، تجرّد الفن من «معناه» وتحيله الى هذيان وهذر . إن الفن ليس هدفه فقط أن يُمتع ويسرّ ، ولكن هدفه يتحدّد بمقدار ما يوفر لنــا المتعة والفائدة معاً ، بهذا يتسامى الفن ويعظم أثره . وفي هــذا

تقول الكاتبة البلجيكية نللي كورمو : « لئن كان بديهياً أن القصة لا غاية لها إلا" هي بالذات ، ولئن كان قانون كينونتها الأساسي خاصاً بها ، أي جمالياً محضاً ، فهذا لا يمنع أن معظم القراء يبحثون فيها عن معنى فلسفي ، أو على الأقل عن خميرة أخلاقية، ونوضح فنقول: خميرة للتفكير الأخلاقي لابناء اخلاقياً بالضرورة » .

ثم تمضي الكاتبة في تعليل رأيها قائلة : إن من يقول أدباً ، لا يعني « نزهة» وإنما « وعياً » وإن مهنة الأدب تمتاز بهذه الخاصة، وهي أن صاحبها ينخرط فيها كلياً، ويمارسها بأعمق أعماق نفسه، ويصب فيها جوهر ذاته ، في لحظة معينة . وبوسعنا القول إن الأديب كائن أشد قلقاً من الآخرين . إنه قلق وفضولي تجاه معنى مصيره ، وتجاه روح العصر الذي يعيش فيه . إنه رجل لا يستطيع أن يعيش دون أن يتساءل لماذا ؟ وكيف ؟ ومن هنا كان الشرط الرئيسي للأثر الفني أن لا يكون « لا مبالياً » ولا لون له ، وكان الأثر الفني الحقيقي هو الذي ينخرط فيه الكاتب بكلّيته ويلتزم برمّته . في مثل هذا الأثر يتبادل القارىء والفنّان الغذاء معاً دونما هدنة ، ويتكاتفان ، ويبرّر أحدهما الآخر ، وهكذا يكون الأثر في وقت واحد سروراً وواجباً ، رضى وتضحية . وقد قال فرنسوا مورياك : « إن قيمة أثر ما هي بمقدار ما ينعكس فيه مصيرٌ ما » وهذا يبرر قولنا : « إن القصة ينبغي أن تصدر عن فلسفة للحياة ، فبفضل هذه الفلسفة تكتسب القصة لهجتها الانسانية في أشمل مظاهرها وأعمقها ،

وتستجيب لمطلب القـــارىء الذي ينشد خميرة للتفكير الاخلاقي [1] » .

إلا ° أن الباحثين يلحون إلحاحاً زائداً على أن فكرة الكاتب الأخلاقية هذه يجب أن تورد بصورة « ضمنية » لا يكون فيهـا الهدف واضحاً مفضوحاً أو متطفلاً ، بـــل تشي به الحوادث ، وينبثق انبثاقاً من الدرام ، أو من نفسية الأبطال . وبهذا يرضي العمل القصصي الفن ولا يخلو من المنفعة .

وما دمنا بصدد بحث الفكرة في القصة ، فمن الخير أن نشير إلى معنيين يخلط بينهما بعضهم عادة وهمـــا المغزى والفكرة الرئيسية . إن **الفكرة الرئيسية** هي التي تمثل وجهة نظر المؤلف. وأما **المغزى** فهو الانفعال الأخير الذي يستشعره القارىء ، أو المعنى أو الدرس الذي يستخلصه من القصة أو الرواية .

الأسلوب

الأسلوب هو الطريقة التي يعالج بها الكاتب قصته، ويخرجها إخراجاً فنياً رائعاً ، يملك على القارىء لبه ، ويجذب انتباهه ، فيتابع سيره في قراءتها مأخوذاً بما فيها من سحر وبساطة وعذوبة تشي بها لغة الكاتب وأوصافه، وما لديه من حلاوة قص ، ومماطلة Suspense تستثير القارىء وتهيجه ، وتفرحه وتحزنه، فيندفع إلى النهاية مقوداً بمثل نشوة الغرام ، لمعرفة النتيجة ، والوصول إلى الحل .

---

١ – نللي كورمو المصدر السابق ذكره

هذا وإن لكل قصة أسلوباً ، إذا لم يكن لكل كاتب أسلوبه. فأسلوب الرواية غير أسلوب القصة ، وما يمكن أن يتبع في القصة من أساليب فربما لا يصلح للاقصوصة . ولكن الاسلوب المتبع في بناء القصة عامة هو الاسلوب المبني على خطة تعرف بـ « السياق » أو « الحبكة » وهذه الخطة تبتدىء عادة بـ « **مقدمة** » تنتقل منها الى الحادثة حيث تبلغ « **ذروتها** » ثم تصل إلى « **الحل** » وهو النهاية أو الخاتمة .

السياق

يعنون به الخطة أو الحبكة كما ذكرنا ، وهو ترتيب مجرى القصة حسب تتابع الحوادث فيها إلى أن تصل إلى الذروة ثم الحل .

والسياق أهمية أولية في القصة إذ أنه يحفظ لها نظاماً ويسيّر الحوادث حسب غرض كاتبها ، ويجعل من القصة وحدة فنية .

المقدمة

هي التوطئة للخبر والتمهيد الذي يبنى عليه . وفي هذا الصدد ينقل الأب شيخو عن كاتبنا العربي بديع الزمان الهمذاني أنه قال : « وربما كان للقصة سبب لا تطيب إلا به ، ومقدمات لا تحسن إلاّ معها فعلى المحدث أن يسوقها [1] » هذه المقدمة هي التي توضح لنا مكان الحوادث وزمانها ، وتعرفنا بالاشخاص

---

١ — لويس شيخو «علم الأدب» الجزء الأول» الطبعة الثامنة ص ٢٥٤.

وطباعهم . فيها يجب أن يجد القارىء باباً يؤدي به الى ذلك الجو الذي تستقر فيه القصة المميزة كي يهيىء ذهنه للانتباه إليها بالطريق الموافق . أما أسلوبها فيجب أن يكون بليغاً وملذاً ومبتكراً تميزه حقيقة الواقع، وعذوبة الايجاز كي لا يمل القارىء ويخلق حوله جوّاً غير الجو المطلوب. وإلا فإن القارىء يعرض عنها ، ويتجه تواً إلى القصة ، أو انه يقبل على قصة أخرى . وذلك بسبب إطناب مذموم أو تمادي المقدمة في الخيال، فتخمد حمية القارىء، ويتحول انتباهه عن حقيقة حادث مؤثر إلى خيال فارغ ، وأوصاف منمقة لها وقع موقت في نفسه [1] .

الذروة

هي النقطة القصوى في القصة ، حيث تضطرب عواطف القارىء ، وتزداد لذته لوصول الحوادث إلى أبعد مجاريها وأحرج مواقفها ، فيدفعه التشوق لمعرفة حلها . وهنا تظهر مقدرة الكاتب الفنية ، ومعرفته لنفسية القراء ، فيأتي الكاتب الماهر بما يوافق ذوقهم من عبارات رقيقة رنانة وأسلوب بليغ ، يولّد عطفاً قوياً وتأثيراً واحداً في نفس القارىء ، ويدفع به الى أن يشعر أنه هو ذلك الشخص نفسه في القصة ، تلعب به الحوادث، وتوصله إلى حيث هو بيد العقبات . فيتابع القراءة كي يصل الى

١ ــ اعتمدنا في هذا الكلام وما بعده في ما يختص بالذروة والحل على ما نقلته عزيزة الزين عن كتابي « Modern short stories » و « The short story » في مقال لها عن القصة في مجلة « العروة » عدد كانون الثاني ١٩٣٩ .

النتيجة مرحلة القصة الاخيرة .

الحل

هو آخر ما تصل اليه القصة ، ونتيجة نهائية للذروة وحل لمشا كلها. فبالحل تنصب نفس الكاتب أي انصباب، فيأتي بكل ما لديه من ألفاظ قوية جزلة ومعـــان رقيقة مؤثرة ، ليرسم في عاطفة القارىء وذهنه صورة رائعة عن حوادث ومؤثرات آلت إلى نهاية تبقى أمامه مع مرور الأيام .

وبالرغم من أنا نرى للذروة والحـــل منزلتين متقاربتين في القصة فيجب أن نفرق بينهما من حيث الأسلوب. فبالأولى نحاول تهييج عاطفته، وتحريك لذته إلى درجة قصوى ، أما في الحــل فيجب أن نزيل عنه ضغط التهييج ، ونبقي فقط أحسن الوقع في نفسه ، وأبقى الأثر في ذاكرته .

والحل لا يكون وصفاً ولا عرضاً ، بل جملة أو اثنتين تنتهي بها الشخصية البارزة، أو كلمة للكاتب ترمي الى النتيجة النهائية.

مشكلة اللغة في القصة

وهنا يحسن بنا أن نقف عنـــد مشكلة كثر فيها الجـدل والنقاش وتعددت المذاهب، وهي مشكلة اللغة في القصة أينبغي لها أن تكون بالفصحى «لحماً ودماً» أم يلزم أن تحل محلها العامية؟

يذهب فريق من الباحثين إلى أن اللغة الفصحى لغة جامدة، منفصلة عن المجتمع ، لا تعنى بحاجاتنا الى التعبير عن حيـــاتنا

الجديدة المتطورة ولا تتسع لمختلف تجاربنا النفسية . إنها لغـــة ثانية غير لغتنا ومشتقة من جو غير جونا . وإن استعمالهـــا في القصة يفقد القصة عالمهـــا المائج بالحيوية والصدق ويصور لنا الشخصيات على غير طبيعتها فتظهر القصـــة وعليها دلائل الصنعة الفاضحة والأسلوب الذي يتغاير مع أسلوبنا .

ويعلل هذا الفريق رأيه بأن القصة ما دامت الحياة لها مصدراً فان لغتها يجب أن تكون اللغة المستعملة في الحياة . ومن منا في حياته يستعمل لغة الفصحى المعربة وأسلوبها القائم على الاحتفال الخطابي ؛ ولذلك فهو يدعو إلى أن تحل اللهجة العامية محل اللغة الفصيحة في القصة خاصة.

بينما يذهب الفريق الآخر الى القول : « إن تأليف القصـــة بالفصحى يجعلها أوسع انتشاراً ، لأن اللغات الدارجـــة محلية ، وليست لها قواعد مضبوطة في التحرير ، واذا كانت مفهومة في مناطقها ، فالكثير من تعابيرهـــا لا يفهم في المناطق الاخرى . وإن التجأ بعض الكتاب لسرد جمل من الحوار بها فلكي يجعلوها ذات طابع خاص ويقربوا القارىء من جوها . ثم إن الفصحى أقدر على التعبير والتصوير لكثرة مرادفاتهـــا واتساع مشمولاتها اللغوية ، إلى ما تتمتع به من موسيقى لفظية للقواعد التي تضبط كلماتها ، سواء أقرئت قراءة أم سمعت سماعا ، فلكل حرف لحن في طول المدّ أو قصوره ، ولكل جملة وقفة أو استئناف، ولكل كلمة نطق مضبوط خاص يتبعه كل عربي » [1] .

١ ــ ناجية تامر مجلة « الفكر » التونسية ــ عدد أفريل ١٩٥٩ ، ص ١٠

ومن هنا يقول الدكتور محمد فريد غازي : إن حل المشكلة لا يكون إلاّ في الجواب عن سؤالنا لمن يكتب الأديب ؟ ألا يكتب لطبقة قارئة ومثقفة ؟ وبما أن هاته الطبقة قارئة ومثقفة فاستعمال اللهجة العامية لا يجب أن يخطر على بالنا إطلاقاً . بل يجب أن يعلم أن حركة استقلال البلاد العربية لا يمكن أن تؤول كحركة نحو الاقليمية بل حركة نحو الشمول . وإنه لحظٌ جميل أن تملك البلاد العربية لغة أدبية تجمع بينها ، وهي لغة غزيرة المادة ثرية .

ويمضي الأديب التونسي مستطرداً الى الدفاع عن اللغة الفصحى بقوله : « وقد يذهب أعداء العربية الفصيحة إلى أن هذه لا تعبّر عن «المواقف» Sitiations التي يجابهها الانسان المعاصر . ولكن متى كانت اللهجات قادرة على التعبير عن هذه المواقف الانسانية التي نجد في رواية (السّد) [1] صدى منها ؟ ومتى عبرت عنها ؟

« إن اللهجة التونسية ـ كغيرها من اللهجات العربية ـ عاجزة عن أن تعبر عن هذه «المواقف» واللغة الفصيحة وحدها كفيلة بالتعبير عن انسانية زاخرة . ومهما يكن فقد اتسعت اللغة العربية في القرون الوسطى إلى التفكير الفلسفي اليوناني المعقد ، وهي تتسع الآن إلى التفكير الفلسفي الغربي على صعوبته ، وهي

---

١ ـ الرواية التي كتبها الأديب التونسي الكبير محمود المسعدي ، ووصفها المستشرق « ج بارك » بقوله « إنها رواية فلسفية رمزية تجاوزت بأشواط كل الانتاج العربي »

كفيلة بأن تمدنا بما شئنا من عبارات »

ثم يقف عند مسألة الحوار ، وهو في القصــة أحياناً قلبها ، ودمها الحيّ الذي ينبض في شرايينها فيرى الدكتور «أن اقترابه من الواقع — أي من اللهجة الشعبية ـ يدخل هذه الانسانية التي ننشدها في القصة أو الرواية . فمن الحمق أن نجعل الفلاح يتكلم حسب قواعد الاعراب ولكنه مع ذلك يتحفظ قائلاً : «حتى في الحوار، أرى من الصالح ألا نستعمل اللهجة العامية باسترسال. فما قول القارىء الفرنسي لو قدموا له رواية مكتوبة باللاتينية ، وحوارها باللغة الفرنسية الحديثة ؟ هكذا أرى استعمال اللهجة باسترسال في الحوار .[1]

وبين هذين الفريقين فريق ثالث معتدل يقف موقفـاً وسطاً من القضية حين يعلن « أن مشكلة لغة القصة هي مشكلة لغــة الكتابة عموماً ، وحلّها يكون بالتقريب بين لغة الحديث ولغة الكتابة ، وذلك أولاً باختيار المألوف — لا تقـل في « الصائفة المنصرمة » مثـــلاً إذا أردت أن تقول « في الصيف الماضي — وثانياً بعدم الخوف من لغة الحديث .. [2]»

« إن الفصحى المتقعرة أصبحت في حكم الأجنبية عنا ، وإن العربية الدارجة لم تصل إلى درجة من التطور يستطيع الكاتب أن يعبر بها عن دقائق الأشياء وعن الخلجات النفسية لأشخاص

---

١ ـ الدكتور محمد فريد عازى ـ المصدر السابق ص ٢٥

٢ ـ انور الجميرى ـ المصدر نفسه ص ٨

القصة [1] ، ولذلك فانّ أفضل حل يرتئي هذا الفريق أن نطبقه – ونحن مع الرأي الذي يرتئيه – أن نمزج بين اللغتين ونزاوج بينهما .

وإن أخصب بحث قرأته ، بين ما قرأت لفريق الوسط هذا من أبحاث هو البحث الذي عقده زكريا الحجاوي في مجلة «الغد» بعنوان «اللغة الديموقراطية» يقول الكاتب :

إننا ، ونحن نراقب القتال الأبدي بين الفصحى والعامية ، نراقب شيئاً آخر حول ذلك القتال ، هو أن الفريقين من الأدباء والعلماء والكتّاب في واد ، والحياة نفسها في واد آخر ، فبينما الكتّاب يقتتلون ويتحاربون ويختارون لحربهم ميادين رسمية ، في الكتب والصحف ، نرى الحياة قد اصطنعت نوعاً من الحرب بين الفصحى والعامية، حرب هي أشبه ما تكون في كل خصائصها بالسلم بل بأشهى ما تتمناه البشرية من السلم النابض الحي، الذي يتقابل فيه الرأيان، يحتربان، ويناضلان، وغايتهما في هذه الحرب، لا انتصار الذات ، وانما انتصار الصواب ، وما العداوة بينهما عن أنانية وبغضاء ، وانما هي أشبه بعداوة المحبين والعشاق ، يعطي كلٌ الآخر من أسباب وجوده ما يعوز ذلك الآخر للوجود والبقاء ، فكلما همّت الفصحى بالتعبير عن شيء ولم تستطع ، استلّت العامية من أحشائها عضواً ، لفظة أو جملة ، وأعطته للفصحى ، وكلما همّت العامية بالنطق ، وتعثرت على لسانها المعاني ، أنقذتها الفصحى بقطعة من وجودها الحي ، بكلمة أو

(١) محمد المرزوقي – المصدر نفسه ص ٨٤

بعبارة ، ومن هنا رأينا الحياة ذاتها تسير ، غير ملتفتة إلى فراغ في ذهن ، أو إلى جمود على لسان ، فكلما أرادت الحياة، والحياة هنا هي الحياة الاجتماعية ، كلما أرادت الحياة أن تعبر عن شيء مهما دق ورق وشف هذا الشيء تعاونت الفصحى والعامية معاً على مد الحياة بأداة التعبير .. وهكذا فان الحياة الاجتماعية هي التي تشكل كل شيء ، وتكيف كل شيء ، حتى اللغة . وان هذه الحياة الاجتماعية قد قالت كلمتها باعطائنا لغة ليست هي باللغة الفصحى ، كما أنها ليست العامية ، بل وليست لغة ثالثة ، وانما هي - على حد التعبير العلمي - اللغة «الفصحعامية» أو ما يمكن أن نسميه باللغات الديموقراطية . لغة قصت الفصحى فيها شعرها وذوائب أصوليتها ، ونظفت فيها العامية بدنها وابتسمت قليلاً لتخفي ما بين تجاعيدها من هموم ..[1] »

الحــــوار

أما فيما يتعلق بالحوار خاصة ، وهو يعين على إحياء الشخصيات، ويبث النشاط في الحوادث ويساعد على تمثيل الحركة القصصية تمثيلاً حياً ، فيجب أن يكون مناسبـــاً للشخصية والموقف ، يمثل نفسية المتحاورين وأسلوبها في الحديث والمخاطبة، وعقليتها في التفكير وفي الحركات الذهنية . ولذلـــك فمن البدهي أن يكون الحوار في العامية إذا اقتضى الموقف ذلك . وليس في الأمر

(١) زكريا الحجاوي «اللغة الديموقراطية» مجلة « العدد» العدد ٤ الصفحة ٥٤

شيء يدعو إلى الاستهجـان ، فإن شكسبير نفسه قـد أنطق « الجان » في رواياته باللغـة العامية ، وذهب إلى أبعد من ذلك فلجأ إلى الفرنسية يضع بها الحوار حين رأى أن الرواية تفرض وجودها . ولماذا نذهب بعيداً إلى شكسبير وعندنا الجاحظ — أحد أئمة البلاغة والأدب العربيين ؟ ألم يحكِ الجاحظ في قصصه ونوادره كلام المولدين والعوام بما فيه من لحن وخطأ لينقل الواقع بكل ما فيه ؟! اسمعه في كتاب البخـلاء (ص ٦٤) يضع لنا القاعدة ويحذف المشكلة بتنبيهنا الى ما يلي : « وإن وجدتم في هذا الكتاب لحناً أو كلاماً غير معرب ، ولفظـاً معدولاً عن جهته ، فاعلموا أنا تركنا ذلـك لأن الإعراب يبغّض هذا الباب ويخرجه من حدّه ، إلا أن أحكي كلامـاً من كلام متعاقلي البخلاء وأشحّاء العلماء كسهل بن هارون وأشباهه !! »

أنواع القصة

القصة من حيث معناها العام أنواع عديدة ، فهناك قصة الحادثة ، وقصة الشخصية ، وقصة الفكرة ، وقصة البيئة الخ.. وقد تقدم البحث عن كل نوع من هذه الأنواع .

وأما من حيث الشكل والمظهر فأشهر أنواع القصة أربعة : الرواية ، والقصة ، والأقصوصة ، والحكاية .

١ ـ الرواية

فأما الرواية ، وتقابل في الفرنسية كلمة Roman فهي مجموعة حوادث مختلفة التأثير ، تمثلها عدة شخصيات على مسرح الحياة الواسع ، شاغلة وقتاً طويلاً من الزمن . ويعتبرها بعض الباحثين الصورة الأدبية النثرية التي تطورت عن الملحمة القديمة .

عرفت الرواية في القرون الوسطى عند الغربيين [1] وكانت

---

(١) يذكر M. l'abbee. Ci Vincent. في كتابه « نظرية الأنواع الأدبية » أن كلمة رواية Roman كانت في العصور الوسطى ترادف كلمة قصة في لغة شعبية أو رومانية (يعني اللغات المشتقة من اللاتينية

تطلق على كل قصة خيالية كانت أم حقيقية، شعراً كانت أم نثراً. أمّا مـــا قبل هذه القرون فلا يذكر الباحثون أنهم عرفوا في الأدب الاغريقي، أو الأدب اللاتيني ما يمكن ان يطلق عليه قصة أو رواية حتى ولو عن طريق التجوّز، إلا في محاولتـــين أو ثلاث : أولاهما الملحمة التي نظمهـــا الشاعر الاغريقـــي (أبوللونيوس الروديسي) في القرن الثـــالث قبل الميـــلاد وعرفت باسم – أرغونوتيك Les Argonâutiques – وفيهـــا يقص الشاعر قصة حب وقع بين ميديه Médée وجازون Jason اعتبرت مشتملة على العناصر الرئيسية في الرواية أو النواة لها. وثانيتهما الرواية التي كتبها الاديب اللاتيني (بيترون) في النصف الاول بعد الميلاد باسم (ساتيركون) امـــا الثالثة فهي الرواية التي ألفها الروائي اليوناني (لونجوس Longus) في القرن الرابـــع بعد الميلاد بعنوان (دافنيس كلويه) وفيها يصف الشاعر حياة الرعاة وما يجري بينهم من حب ويتبـــادلونه من شعور وعواطف وإحساسات .. أما لماذا أهمل الأقدمون الرواية ولم يظهر منها في أدبهم اليوناني ولا اللاتيني سوى هذه الآ ثار الضئيلة والمحاولات المحدودة، فيعللهـــا الناقدون بأن حاجتهم للأمور العجيبة والمغامرات الخارقة للمألوف التي تعتبر أســـاساً لنشأة الرواية البدائية قد وجدت لها منفذاً في الملحمة، فلمـــا اختفت

كالفرنسية والايطالية) والجدير بالذكر أننا اعتمدنا هذا الكتـــاب في بحثنا عن الرواية وهو منقول الى العربية ومعلق عليه بقلم الدكتور حسن عون . القاهرة ١٩٥٨ .

الملحمة تحت تأثير النزعة الدينية والتفكير الفلسفي في اوربة خلال العصور المتوسطة، تمهّد السبيل أمام ظهور الرواية فظهرت هذه وحلّت محل تلك ، وأخذ النـاس يقرأون روايات الغرام وقصص الفروسية وغيرها مما نجد شبهه أيضاً ، وفي هذا الوقت بالذات، عند العرب الأقدمين في قصصهم المعروفة : قصة عنتر ، وقصة الملك سيف ، وقصة بني هلال التي داروا فيها حول الحب وتناولوا قصص الفرسان ممـا سيأتي ذكره بالتفصيل في فصولنا الآتية .

في القرون الوسطى إذَن ظهرت الرواية ؛ ولكن على الرغم من ظهورها في هذه العصور فإنها لم تأخذ معنى أدبيّاً خاصّاً إلاّ في القرن السابع عشر ، حين ظهرت في فرنسة رواية Astrée (عشتروت) ١٦١٠م لمؤلفها (أونوريه دورفيه Honoré d'Urfe) الذي افتتح بها عهداً جديداً للرواية الفرنسية ووضع فوق ذلك القواعد التي ظلت تتبع إلى زمن طويل في التأليف الروائي . في هذا القرن بالذات ، وبعـد ظهور (دون كيشوت) في اسبانية للكاتب سرفانتي طغت موجة الرواية على الأدب طغياناً عظيماً عند جميع الأمم الراقية ، وأخـذت تكسف الأدب المسرحي والشعر والتاريخ ، مما نبّه حملة الأقلام في العالم إلى قيمة هـذا الأدب القصصي وعظم تأثيره على الجماهير ، فراحوا يمارسونه ويتخذون من أسلوبه طريقة لإيصال فلسفتهم وآرائهم إلى أذهان العامة فنما الأدب الروائي عند الغربيين نمواً عظيماً ، حتى أصبح في القرن التاسع عشر ، « وهـو القرن الذي استمد خصوصياته

المنهجيّـة من ممارسة الرواية ، وعرف بالاسم المشير باشتقاقه إلى انتساب ذلك العصر الأدبي أصالةً إلى فن الرواية ونعني به عصر الرومنتيك ، اقول حتى أصبح أدب الرواية في هذا العصر أدباً له شكله الفنّي الخاص ، وكتّابه المبدعون الذين بدأوا ينافسون الشاعر المسرحي في التحليل الدقيق العميق للاحساسات والعواطف والأخلاق والعادات ،ويصيغون شخصياتهم لامن دخان ،ولا مما ألـفه الخيال- كما جرت العادة في الماضي-بل من كائنات مجسّدة حيّة لها ما لنا من شعور وإحساسات ، تختلج بها روح العصر ، ونرى فيها كل المجتمع يتحرك أمامنا ويميد بمختلف طبقاته وسائر أوضاعه مما جعل الأدب الروائي يقطع بذلك شوطاً بعيداً تصبح فيه الرواية هي أدب العصر وملحمة شعوبه الحديثة .

أنواع الرواية

تنقسم الرواية في ما يتعلق بموضوعها أقساماً عديدة أشهرها:

ا - رواية العجائب والمغامرات

وهي الرواية التي يعمد مؤلفها إلى وصف حوادث فيها كثير من المغامرة والأعمال المنطوية على المفاجآت والمباغتات . وتدخل فيها قصص السحر والجان، والمردة والعفاريت، والروايات التي مدارها البحث عن الجرائم وتعقب المجرمين **الروايات البوليسية** وهي على العموم ليس لها اليوم أي شأن أدبي . وقد أشتهر منها في التاريخ : قصة روبنسن كروزو ، ورحلات غَلـّيفـَرْ .

ب – رواية العواطف

وهي الرواية التي تتناول قصـــة أو مغامرة من مغامرات القلب ، أو حكاية ممايجري عادة في البيوت . وقد أخذت مكانها في الوجود والشهرة بواسطة المؤلف الانكليزي ريتشاردسون Richardson في كتابه Pamela وبواسطة جان جـــاك روسو الذي ألّـف Nouvelle Héloise

ج – رواية التحليل النفـي أو الفلسفي .

وهي الراوية التي تحلل بصفة خاصّة العواطف والأهواء . ثم تدور في أغلب الأحيان حول أمر يتصل بالضمير. ومن أشهر كتّابها: مارسيل بروست Proust وبول بورجيه Bourgetوهنري جيمس Henry james و ه. ج. ولز H. G. Wells وفيـــدور دستويفسكي . Dostoiewski .

د ـ الرواية الهادفة (ذات الهدف والرسالة)

وهي الرواية التي تعالج مرضاً اجتماعيـاً منتشراً ، أو تندّد بحالة سياسية سيئة ، أو تدعو لمذهب سياسي أو ديني . وقـد اشتهر بها شارل ديكنز Dickens في انكلترة ، ومكسيم غوركي M. Gorky فيروسية وهاريت بيتشرستو Harriet Beecher Stewe في اميركا وهذه الأخيرة رواية باسم (كوخ العم توم) تصف بها حالة الرقيق في الولايات المتحدة كانت سبباً في إثارة الحرب الأهليـة وتحرير العبيد .

هـ ـ الرواية الاجتماعية

وهي الرواية التي تصف المجتمع وتصور عادات أهله وأعمالهم وأخلاقهم وعلاقتهم بعضهم ببعض في ظروفهم الاجتماعية ، وبيئتهم التي تطبعهم بطابعها الخاص. وخير من يمثل هذا النوع من الروايات ديكنز في انكلترة واميل زولا Zola وبلزاك BalZac في فرنسة وغوركي في روسية.

و ـ الرواية التاريخية

وهي الرواية التي تعمل على إحياء بعض الشخصيات الكبيرة في التاريخ، كما تعمل على إحياء الحضارات التي اختفت معالمها، تعرضها علينا عرضاً قصصياً إمّا بأسلوب لا يتقيد بالتاريخ، بل يتصرف به ويحوّره من أجل قصته ، كقصص ولتر سكوت Scott ودوماس Dumas . وإما بأسلوب يتقيد بالتاريخ ، ولكن يقدمه لنا في إطـــار قصصي كقصص ليتون Lytton وإيبرس Ebers ، أو باستغلال التاريخ استغلالا فلسفياً يعمد فيه الكاتب إلى التاريخ الأسطوري فيصب في قالبه صورة من صور المجتمع الحـــديث كقصص سارتر Sartre وكامو Camus .

على ان كل هذه التقسيات بطبيعة الحال ، ليست مبنية على حدود قاطعة ، بل على اعتبارات وأوصاف غالبة ؛ إذ لا توجد رواية من رواية المغامرات إلا ويوجد فيها تفاصيل عن الاخلاق والعادات أو عن التحليل النفسي ، كما لا توجد رواية واقعية إلا ويوجد فيها قليل من المثالية بالنسبة للأحداث والاحساسات .

٢ - القصة

وأما القصة واسمها بالفرنسية Nouvelle فهي ، كما يحددها تيمور ، القصة التي تتوسط بين الأقصوصة والرواية ، وفيها يعالج الكاتب جوانب أرحب مما يعالج في الأقصوصة ، فلا بأس هنا بأن يطول الزمن ، وتمتد الحوادث ، ويتوالى تطورها في شيء من التشابك [1] .

تمّ ظهورها في القرن الثامن عشر. وقد ظهرت في رأي بعض الناقدين كردّ فعل لرواية القرون الوسطى وما بعدها في القرنين السادس عشر والسابع عشر من روايات ، وفي رأي بعضهم الآخر كنتيجة لظهور الطبقة البورجوازية التجارية القوية التي تمثل الطبقة الوسطى . وقد تشبه القصة الرواية ، ويشترط فيها ما يشترط في الرواية من صدر وعقدة وحل ولكن في غير إطالة .

٣ - الأقصوصة .

الأقصوصة قصة قصيرة تصور جانباً من الحياة الواقعية ، في ترتيب يخلقه الأديب الفنان ، ليبرز ظاهرة أو ظواهر خاصة ، أو ليحلل حادثة او شخصية باسلوب يفهمه القارىء العادي ، وفي حجم يمكّن من قراءتها في جلسة واحدة .

وهي تمتاز عن القصة والرواية بأنها تعين المؤلف على ان يسلّط قوته كلها على فكرة واحدة يعزلها عن كل شيء آخر ،

---

١ - محمود تيمور - فن القصص - القاهرة - في ١٩٤٨ ص ٤١

ويلقي عليها نوراً قوياً يبرزها بصورة واضحة مؤثرة يستطيع بها الكاتب أن يوصل هذه الفكرة إلى القارىء بشكل أقوى مما لو كانت الفكرة أو الحادثة جزءاً من رواية كبيرة متعددة الحوادث والوقائع .

ولهذا كان لكتابتها أسلوب خاص بها ، لاتخضع فيه للحبكة كالرواية ، ولا تعنى مثلها بالتفاصيل ، ولا تهتم إلا بما له علاقة مباشرة بالحادثة ، ولا يلزمها كالرواية بداية ونهاية، بل قد تكون صورة أو مشهداً أو حتى جواً نفسياً خاصاً ، تعالج لمحة من حياة البطل في لحظة من لحظات وجوده أو أزمة من أزمات نفسه ، لا حياته بأكملها مع التطورات فهذا من شأن الرواية .

بدأ تاريخ القصة القصيرة أو الأقصوصة كفن مستقل خاص بظهور الكاتب الروسي نيكولاي غوغول الذي عاش من سنة سنة ١٨٠٩ إلى ١٨٥٢ ، فهو الذي يعتبره الغربيون أول من كتب هذا النوع الجديد من الأدب ؛ وإليه يعزون الفضل في أنه خلق من وقائع الحياة اليومية العادية ، ومن سلوك الشعب الساذج المبني على الخرافات والأوهام أحياناً ، ومما يجري من الحوادث التافهة في المصنع والمزرعة والسوق والمنزل أدبا تصويرياً حياً يشف عن البواعث النفسية والغرائز والوجدانات التي تضبط السلوك، وذلك في أسلوب قصصي ، وفي قالب القصة القصيرة .

ومن غريب المصادفات أنه بينما كان غوغول يكتب أقاصيصه هذه كان الكاتب الاميركي إدغار ألن بو المعاصر له (١٨٠٩ — ١٨٤٩) قد اهتدى إلى هذا الفن نفسه . وصار ينشر أقاصيص

بالانكليزية تتوافر فيها العناصر الفنية الأدبية التي أشرنا إليها ، دون أن يكون بين الكاتبين صلة أدبية أو اتفاق على إنشاء هذا الفن ، وكان بو ناقداً أدبياً كذلك ، فنشر عدداً من المقالات في أدب الأقصوصة وما يجب أن يتوافر فيها ، ونقد ما ظهر في أيامه من أقاصيص غير محكمة الصياغة .

ومن روسية وأميركية انتقل فن إنشاء الأقصوصة إلى فرنسة ، فظهر كتاب برّزوا في كتابتها أمثال موباسان وفلوبير ، ومن فرنسة واميركة انتقل الفن إلى انكلترة فظهر كيبلنغ وآرثر كونان دويل صاحب مخاطرات شارلوك هولمز وغيرهم . وقد وجد كتّاب الأقصوصة منبراً ينشرون منه فنهم في المجلات والصحف وأخيراً الإذاعة . فاحتلت الأقصوصة مكاناً فيها لا يتيسر عادة للقصة الطويلة أي الرواية. وبذلك صارت الأقصوصة فناً أدبياً في متناول كل قارىء للصحف . ووجدت من القراء إقبالاً عظيماً [1] .

وكما انقسمت الرواية والقصة إلى أنواع متعددة ، انقسمت أيضاً الأقصوصة ، وظهرت فيها نفس الأنواع : نوع يهتم بالموقف أو الحادثة ، ونوع يعنى برسم الشخصية ، ونوع يأخذ الانفعال له طابعاً ، ونوع يهتم بالفكرة رمزية وأسطورية ، ونوع يهتم بالموقف والشخصية معاً. وقد اشتهر بها عدا عمن ذكرنا: ترغنيف وتشيكوف في روسية ، وكاترين منسفلد ولورنس في انكلترة ،

---

١ ـ راجع مقال « الاقصوصه في الأدب العربي الحديث » المنشور في مجلة « الآداب » العدد ١١ السنه الثانيه ـ ١٩٤٥ ـ ص ١٧

وارنست همنغواي ووليام ساروبان في أميركا .

٤ ـ الحكاية

وأما الحكاية واسمها بالفرنسية Recit « فما هي إلا سوق واقعة أو وقائع حقيقية أو خيالية لا يلزم فيها الحاكي قواعد الفن الدقيقة بل يرسل الكلام كما يواتيه طبعه ، وغالباً ما تتضمن الحكايات «النوادر» و«الخرافات» وتكون في الأكثر منقولة عن أفواه الناس [١] .

وأهم ما يميز هذا النوع من القصص السرعة والخفة ودقة التأليف. وأحسن ما ألف منه : رسائل مطحنتي Lettres de mon moulin لألفونس دوديه. وهي تحتوي على ألطف الحكايات وبخاصة حكايتي L'installation au Molın وعنزة مسيو ساغان La chévre de M. Seguin

وكل أنواع القصة يمكن وجودها في الحكاية : حوادث واقعية وقصص غرامية ، ومغامرات مدهشة ، وتواريخ الجن والسحر الخ ..

هذه هي خطوط فن القصة ، ومجمل عناصرها وأنواعها وتاريخ نشأتها وتطورها في بلاد الأجانب . فماذا عن القصة في بلادنا ؟ وما حظ أدبنا العربي من فن تأليف القصص ؟ هذا ما سنجيب عنه في الصفحات التالية ، وبه نبلغ الهدف الذي قصدنا إليه من تأليف هذا المؤلف .

---

١ ـ محمود تيمور ـ المصدر السابق

القصة في الأدب العربي

القصّة في الأدب العربي القديم

هل عرف العرب القصة ؟ وهـــل وجدت عندهم لذاتها ؟ وكيف؟ أوجدت عن أصالة أم بطريق الصدفة والنقل وبأسلوب كيفما اتفق ؟

قبل الجواب عن هذه الأسئلة ، يحسن بنا أوّلاً أن نصل إلى اتفاق حول ما يراد بالقصة هذه ، هل القصة بمعناها اليوم ، أم القصة بمعناها الذي كان متعارفاً عليه عند الشعوب التي عاصرت العرب أو سبقتهم في الوجود ؟

إذا أردنا القصة بمعناها اليوم ، فانها لم تكن موجودة قديماً حتى في الأدب الأوربي الذي يتخـــذ بعضهم من قصصه مقياساً للبحث في كل قصة ؛ وأما إذا أردنا القصة بمعناها الذي كان سائداً الآداب العالمية قبـل منتصف القرن الثامن عشر ، وهو العصر الذي يعيّنه الغربيون بدءاً للقصة بمفهومها الفني الحديث، فان القصة بهذا المعنى قد كانت معروفة عند العرب قديماً، عرفها العرب لذاتها ، ومارسوها في وقت مبكر ممارسة أخذت تبلغ نضجها وتمامها منذ القرن الثالث الهجري أي ما قبل أحد عشر

قرناً تقريباً .

وإن نظرة واحدة نلقيها على تاريخ الأدب العربي لتبين لنا بجلاء صدق هذا الذي ندّعيه ، فالعرب منذ العصر الجاهلي قد كان لهم قصص وأخبار تدور حول الوقائع الحربية ، وتروي أساطير الأولين . وعندما ظهر الاسلام جاءهم «بأحسن القصص» ثم تكوّنت على هامش القرآن وتفسيره قصص وحكايات مبنية على أساس من تعاليم الدين الجديد، ومستمدة عناصرها في الغالب من الأساطير اليهودية ، فظهرت « قصص الأنبياء » و « قصة المعراج» ثم نمت هذه القصص وتضخّمت حتى أصبحت في العصر الأموي عملاً رسمياً يُعهد به إلى رجال رسميين يتقاضون عليه الأجر ، مما حمل الرواة بعدئذ على الخروج الى البادية لتلقّف الروايات وإرسالها في أخبار الحبائب المتظرفات والشعراء العاشقين «كقصة مجنون ليلى وقصة جميل بثينة وغيرهما» وحمل كذلك طائفة كبيرة من الكتاب على نقل كثير من القصص الأعجمية التي يذكر منها ابن النديم في «الفهرست» عدداً ليس باليسير يبلغ حوالي الستين كتاباً ، نجتزىء هنا بذكر أشهرها ، وهو كتاب «كليلة ودمنة» لعبد الله بن المقفع من كتّاب العصر العباسي الأول . وبعد ابن المقفع ظهر الجاحظ الذي اشتهر في العهد العباسي الثاني بنوع الحكاية أو النادرة التي يصور بها أخلاق فئات من الناس «البخلاء» ثم تلا الجاحظ بديع الزمان الهمذاني في العهد العباسي الثالث مؤلفاً «مقاماته» التي يعتبرها المستشرق ماسينيون أول مظهر للقصة العربية .

وفي هذا العهد بالذات نرى القصص يواصل سيره في تضخم واستطالة ، وتدخل فيه الخرافات وقصص السحر « الف ليلة وليلة » ويتسع فيه فنّ التحديث والإلقاء ، وينتشر بين الناس عدد من القصص الشعبية وملاحم البطولة التي تتخذ لها شكل الرواية ، ويشتهر منها في العهد العباسي الرابع «سيرة عنتر وسيرة بني هذل» وغيرهما من الروايات التي يبلغ بها أدب القصص ذروته ويصل الى أقصى اتساعه .

هذه الثروة القصصية التي عرضنا عليك هنا موجزاً لأنبائها هل تظن أيها القارىء أنها ثروة قد تكوّنت لدى العرب اتفاقاً — كما يزعمون — بالصدفة أو بطريق النقل أو باسلوب كيفما اتفق، أم أنها من صنع قوم مفطورين بطبيعتهم على القص — بعكس ما زعموا القصة في دمهم على حد رأي أحد الباحثين ، «وتراثهم في القصص -- على نقصه — لا يعدله تراث من حيث القيمة والكمية غير التراث اليوناني ؟»[1]

إن الباحث في هذه الثروة ليجد نفسه أمام مجموعة هائلة من التراث والقصصي لا يسعه معها إلا أن يذهب إلى القول إن العرب كانوا بفطرتهم ميّالين الى القص ، وأن هذه القصص إذا كان قد وجد بين الناس من ينازع العرب ملكية بعضها كقصص كليلة

---

١ — من مقال لمنير البعلبكي بعنوان « تراث العرب » القصصي منشور في مجلة «العروة الوثقى» عدد كانون الثاني ١٩٣٩ وهو في رأينا من أنفس المقالات بل لعله أقدمها في الدفاع عن القصة العربيه والوقوف بوجه الذين كانوا يغمطونها حقها .

ودمنة وقصص ألف ليلة وليلة لكونها من عِرق غير عربي ، فإن أحداً من الناس لن يكون بمقدوره أن ينازع العرب المقامات ونوادر الجاحظ في البخلاء ، وسيرة عنتر ، وسيرة بني هلال ، وكلها من التراث العربي الصرف .

وأما قول بعضهم بأن القصة وإن كانت قد عرفت عند العرب قديما ، فإننا قلّما نجد فيها عملاً فنياً يقوم على تصور البيئة ، ودرس النفسيات ، وسبر أغوار الحقائق ، فهو قول لا يماثله في توجيه التهم وبخس الناس حقهم إلاّ قول بعضهم الآخر حين قال : « إن العرب إذا كانوا قد عرفوا القصص فقد عرفوه رواية وقائع ومرد حكايات ، ولم يعرفوه بمعناه الذي يجعل من الواقعة عملا قصصياً مركّباً تركيباً فنياً بحيث يخلق المتعة عن طريق الوحدة في عقدة تتأزّم وحلّ يريح » وكلا القولين في نظرنا لا يستوحي الحقيقة والواقع ، أو يتبع أصول الطريقة العلمية التي تقتضي صاحبها أوّلاً أن يلاحظ ما هو قائم وموجود ويستنبط الرأي منه ، وتفرض عليه ثانياً أن لا « يقيّم » أدباً ما إلاّ « تقييماً » نسبياً متأثراً بالحقبة التاريخية التي تمّ فيها خلقه ، أو بالجمهور الذي كان يسعى الى أن يعبّر عنه .

ونحن في اعتمادنا أصول هذه الطريقة لا نرى أن القصة العربية بالنسبة إلى القول الأول هي قصة لا تقوم على تصوير البيئة ودرس النفسيات وسبر أغوار الحقائق ، بل نرى بملاحظة ما هو قائم منها وموجود أنها على عكس ما قالوا تفيض بالصوَر الحيّة الناطقة التي تمثل العرب بمختلف بيئاتهم وأطوارهم ، وترسمهم في

شتى ميادينهم الفكرية والمعاشية والأخلاقية رسماً يتجلى به وجه مجتمعهم ، وتتّضح سماته ، وتظهر نفسيات أهله ظهوراً يكشف عن مخابئها وأغوارها ، ويبيّن أثر الطبيعة فيها وتقلّبات المجتمع ، أثناء حالة الرضا وأثناء حالة الغضب ، وأيام عهد القهر العبودي وأيام ذل الاقطاع ، وفي فترات الاعتقاد بتعدد الآلهة ، وفي فترات الايمان بمجتمع القوى الخفية ؛ ويكفي للتدليل على ذلك أن ننعم النظر في نموذجين فقط من هذه النماذج هما قصص الجاحظ في البخلاء ، وحكايات ألف ليلة وليلة عن بغداد لنرى في هذه القصص روح العصر ، ومجلى الدنيا العربية في أيام لهوها ومجونها وليالي أنسها وأفراحها ، يتفنّن فيها القصّاصون ما شاء لهم التفنن ويخلعون عليها من أنفسهم ؛ ويلوّنونها بألوان عيشهم ومطمح رغائبهم ، فتجيء عند الجاحظ مثالاً تامّ الحبكة والاداء يصل فيها التحليل النفساني إلى ذروته ، ويلتقط أدقّ الحركات وأخفى النوايا ، ويُرضي بها كاتب ألف ليلة وليلة وجدان الجماهير ، ويكفي حاجتهم الفنية إلى أدب يستمدّ من حياتهم ، ويعكس شوقهم إلى دنيا يهربون فيها من واقعهم وينسونه ويحلّقون في آفاق لا يحكمها ضغط ظاهر أو إرهاب سادر ، يحصل فيها المرء على المال بلا جهد ، ويلقاه بواسطة السحر ، أو السيطرة على القوى الخفية .

هذا بالنسبة إلى القول الأول وهو القول الذي يرى أن القصة العربية عاجزة عن تصوير بيئتها وإيجاد لونها المحلي . وأما القول الثاني وهو القول الذي يرى أن القصة العربية في تركيبها ليست

قصة فنية يصل فيها الكاتب إلى خلق المتعة عن طريق الوحدة في عقدة تتأزّم وحلّ يريح فلعله هو وحده القول الذي لا يزال عدد من الباحثين يطلقونه عند درس القصة العربية ، من غير أن يلاحظوا فوارق الزمن ، واختلاف البيئات ، وأنّ ما اصطلحنا على أن نتخذه مقياساً للقصة بمفهومها الحديث ، لا يصح أن يتخذ مقياساً للبحث في القصة القديمة ، ذلك أن القصة بمعناها المستحدث الذي يجعل منها فناً أدبياً له حدوده المعهودة وأغراضه ومعناه هي وليدة القرن التاسع عشر أو ما قبله بقليل ، ظهرت بظهور الطباعة ، ونشوء القوميات ، وانتشار الصحافة انتشاراً كاملاً كما قدّمنا ، وكانت قبل ذلك حتى في الأدب الأوربي قصصاً في شبه قصص ألف ليلة وليلة وسيرة عنتر وسيرة بني هلال ، رواية حوادث ومواقف ، تروي قصص الحب والفروسية ، وتعنى بالمخاطر والأهوال ، من غير أن يكون لها شأن في تصوير الشخصيات وتحليل نفسياتهم. وفي ذلك يقول أديب من أدبائنا: « وسواء أأخذنا قصص بوكاتشيو أم روايات فولتير مثل كانديد وزاديغ أم روايات الانكليز في القرن الثامن عشر كروبنسن كروزو لديفو ، وطوم جونز لفلبدنغ ، فلن نجدها تختلف بشيء عن قصصنا العربية ، بل نجدها جميعاً مثل قصص ألف ليلة وليلة ، تعنى بالمخاطر والأهوال أو النكات الغرامية ، أو العبر الحكمية . أما التركيب الذروي الشامل ، فأننا لا نجده فيها إلى أن ندنو من نهاية القرن الثامن عشر ونلج القرن التاسع عشر حيث نجد الرواية كالموسيقى تأخذ في التركيز بحوادثها ، وتصبح نفسية

البطل تطغي على المواقف فتغدو الحوادث مركبة بحيث تشترك كلها معاً في خلق ذروة العنف في النهاية [1] ».

هذه هي المسألة ، وهذا هو وجه الصواب في تناولها ، بجهله عندنا بعض الباحثين، فتخبطوا في شأن القصة العربية ، وانتهوا إلى حد جحدها ونكرانها مؤولين الأمر على غير وجه الواقع التاريخي، وناظرين إلى القصة العربية القديمة من خلال القصة الغربية الحديثة، مع أن الانصاف كان يقتضيهم أن لا يسرعوا هكذا إلى إنكار القصة العربية، وأن ينظروا إلى تراث العرب القصصي على ضوء المقاييس القصصية العامة لا المقاييس الحديثة الخاصة ، بل على ضوء القصص الاوربي نفسه في ما مضى من عصور. وهم لعمري لو فعلوا لكانوا انتهوا إلى الرأي الذي انتهينا إليه هنا نحن، وانتهى اليه معظم الباحثين الذين درسوا القصة العربية بعين جديدة عامرة بالصور ، حافلة بالمقارنات تنظر إلى القصة العربية من خلال الحقبة التاريخية التي تم فيها خلقها فتجدها « سائرة في مجراها الطبيعي الذي سار فيه غيرها مع هذا الفارق وهو أن القصة في الآداب العالمية كان خاصة الشعراء والأدباء هم الخالقين لها أما في تاريخ الأدب العربي فقد تخلى الخاصة عن بعض هذه المهمة لعامة أدباء الشعب وشعرائه باستثناء الهمذاني والجاحظ [2] ».

نخلص من هذا كله إلى القول بأن القصة الأدبية قد وجدت

---

١ ــ جبر ابراهيم جبرا ــ الأديب العدد ٢ السنة ٩ ص ٤

٢ ــ توفيق الحكيم « زهرة العمر » ص ٢٢٨

عند العرب قديماً ، وبالصورة نفسها التي وجدت عليها عند الغربيين بل هناك من يقول إن الغربيين انفسهم كانوا في بدء نهضتهم مدينين بقصصهم للعرب [1] .

ولكن الغربيين ساروا بعدئذ في طريق التطور والنهوض فنهضت قصتهم معهم وتطورت بينما جمدت القصة العربية وتقهقرت بجمود العرب وتقهقرهم . وظلت كذلك على جمودها وتقهقرها زمناً طويلاً إلى ان نهض العرب من جديد فنهضت بنهضتهم وكان لنا منها قصص وروايات لا تقلّ عن القصص الغربية ابتكاراً ونسقاً فنياً .

هذا هو الرأي الذي يجب ان ينظر للقصة العربية على ضوئه ومن خلاله فقط يجب ان يستعرض تراث العرب القصصي عبر الحقب والعصور . وإننا باستعراضنا هذا التراث في ما يلي من فصول سنقع على شواهد وأدلة كثيرة تكفي لدعم هذا الرأي وتأييده والحقيقة من وراء القصد .

---

١ – من هؤلاء المستشرق الانكليزي « جب » الذي يؤمن بأن « قصص العرب وآدابهم كانت بدء انقلاب هام في تاريخ الأدب الأوربي في مطلع القرن السابع عشر ، فيومئذ كان ميلاد القصة الحديثة وهنا سرفنتس نفسه كان مديناً للثقافة الاندلسية ، وقصته دون كيشوت كما صرح بذلك بريسكوت اندلسية بحتة في ما ظهر فيها من لباقة وفطنة . راجع « تراث الاسلام » ج ١ ص ١٩٤

تراث العرب القصصي

عرض وتعريف

القصة في الجاهلية

أساطير الأولين ـ وقائعهم وحروبهم ـ أمثالهم

لم تشذ القصة العربية في طور نشأتها عما نشأت عليه بقية القصص في العالم ، بل ابتدأت كما ابتدأ غيرها بالميثولوجية والأساطير، وروت أحلام الانسان البدائي ، وتخيلاته عن الآلهة والعالم ، وعن علاقات الفرد بالمجتمع والطبيعة وما وراءها . إلاّ أنّ هذه التخيلات وهذه الأساطير ، لا تزال بحاجة حتى اليوم لا إلى من يؤلف الأبحاث عنها فقط وينشر الدراسات، فهذه قد صدر منها عدد من الكتب غير ضئيل قطع فيه البحث بالميثولوجية العربية شوطاً واسعاً [1] ولكنها أي هذه التخيلات وهذه الأساطير بأمس

---

١ ــ نذكر منها البحث المسهب في المعتقدات والأساطير العربية قبل الاسلام المشتمل عليه كتاب « في طريق الميثولوجيا عند العرب » لمؤلفه محمود الحوت (بيروت : ١٩٥٥) وكتاب «الأساطير العربية قبل الاسلام» لمؤلفه محمد عبد المعيد خان . والمحاولة التي يقوم بها العالم اللغوي عبد الله العلايلي في قاموسه (المعجم) بتعريفنا عقلية الانسان القديمة وتفكيره القديم عن طريق تتبع معاني الجذور أخذاً بالنظرية القائلة ان مفردات

الحاجة إلى من يعمل على جمعها أولاً ، بدلاً من أن تبقى متناثرة في مئات الكتب ، وتصنيفها ثانياً على النحو الذي تصنف به الميثولوجية في العالم ، مع محاولة إجراء مقارنة بينها وبين هذه الميثولوجية وبخاصة اليونانية منها .

يقول باحثو تاريخ نشأة القصة عامة ، إنهــا نشأت بنشوء الانسان « كان بدء الخليقة قصة وكان الانسان الأول بطلها الأول » ومنذ أن نظر الانسان إلى الطبيعـة ، وعجز فهمه عن إدراك كنهها، أخذ خياله يحيك حولها القصص وينسج الأساطير متصوراً أن وراءها قوى خفيـة تحيا مثله ، وتؤثر في حياته ، فرهبها وألـه مظاهرها ، وقدم إليها الذبائح والقرابين تسكيناً لغضبها وطلباً لرضاها ، كما نسب إليهـا كثيراً من التصرفات والعواطف البشرية ؛ فهي تأكل مثله ، وتشرب ، وتنام، وتهوى وتعشق، وتعرف الزواج فتتناسل وتتوالد، ولها عقل مثل عقله، ولكنها ذات قدرة عجيبة فائقة ، تمكنها من الطيران في الهواء، والركض على السحب ، والغوص في المياه ، والتشكل في أي صورة شاءت . وكل منها موكل بتدبير : فاله منها للبرق ، وإله للرعد ، وإله للمطر ، وإله للعمران ، وإله للموت ، وإله للحكمة والمعرفة ، وإله للمحبة ، وإله للحروب ، وإله للإخصاب في

اللغة تضم بين حروفها معاني قديمة . انظر كلمة ابليس وحكاية جذرها الترحي الميثولوجي الذي يظهر لك فيه أنها تساوي كلمة «ابولون» الاله الفينيقي الاغريقي يوم شمله الغضب الاكبر وجرد من الألوهية وأهبط الى الأرض ليرعى القطعان (المعجم ـ ص : ٣٨ وما يليها»

الخضرة والأرض ، وإله للخير ، وإله للشر .. وقد تتقمص هذه الآلهة بعض الأشخاص فيكون لهم أجساد والآدميين وأرواح الآلهة ، ينبئون الناس بمصائرهم ، ويقسمون حظوظهم ، فيسعى هؤلاء لاسترضائهم ، ويستعينون بهم وقت الضيق ، ويلقبونهم بأبناء الآلهة ظناً منهم بأنهم ولدوا من تزاوج عجيب بين الآلهة وبين إنسيات فاتنات من بنات حواء .

هذا هو العالم الذي نشأت فيه القصة عامة ، ومنه استمدت عناصرها . وهو ليس يختلف ـ كما سترى ـ عن العالم الذي نشأت فيه القصة العربية وحدثتنا عنه أساطير الأولين ، ألم يأتك نبأ الزُهَرة وقصة فتنتها للملكين هاروت وماروت ، وما كانوا يتحدثون به عن القمر حين أراد أن يزوج الدّبران من الثريّا ، وما تحدثوا به عن الشعريين ، وسهيل ، والجدي ، وبنات نش ، وعن «هبل» رب الأرباب ، وعن خرافة نار الحرتين ونار قُزَح وأصنام عمرو ابن لحي ، وحديث الكعبة وبنائها وتطور المعتقدات بشأنها وحديث الحجر الأسود فيها ، وقصة عام الفيل ، وعن الغيلان والسعالي وقصص شياطين الشعر والغرام بين الثقلين وعشق الجن للانس ، وقصص الكهانة والعرافة والسحر ، والقصص التي تحدث عن إبليس ، وتحكي عبادة العرب للبرق والجن والملائكة ، وأخبار العرب الأولين من عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم والعمالقة ، وما يدور حول عاد ومدينتها إرمَ ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد .. ثم ما يدور حول ثمود وبلدها حجر ، وما يحكى عن علاقات طسم وجديس ، وعن الصفا والمروة وأساف

ونائلة ، وعوج بن عنق أو عناق ، وعن العزّى واللات وثالثتها مناة ، وعن سدّ مأرب والسيل ، وعن شق وسطيح ، وعن لقمان بن عاد وخبره في العباد ، وغير ذلك من عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، وكلها ، لعمري، طرائف وحكايات تزخر بالقصص الاسطوري المتدفق بالخيال ، والذي يؤلف في تراثنا مادة غزيرة من أدب الخرافات والأساطير تضارع أدب الخرافات عند الأمم الأخرى أو تقاربه، وتعكس حياة العرب وما مرّوا به من أطوار ، وعقائد دينية ونظم اجتماعية ، وأشار إليها كلها القرآن بقصد العظة والعبرة ، ولم يفصلها تفصيلا مما يدل على أنها كانت متداولة معروفة من كل فئة في جزيرة العرب »

أساطير الأولين

يروي الراوون أنهم أي العرب كانوا ذوي آلهة متعددة تشبه آلهة اليونان ، وتختص بما اختصت به . وفي ذلك تزعم أساطيرهم أن (العزّى) وهي إلهة مشهورة عبدها العرب قبل الاسلام ، وجعلوها مع (الزُّهَرة) إلهة واحدة، وجعلوا الصنم (ود) إله الحب زوجاً لها،تقول الأسطورة: إن العزى هذه كانت امرأة حسناء صعدت إلى السماء وتقمصت نجمة هي الزهرة من نظر إليها من الناس امتلكه الطرب والسرور واللهو ، وأخذته فرحة،ووقع بينه وبين حبيبته من شدّة الغرام مايتعجب منه الناس . وقد روى المفسرون حكايتها على هامش تفسير القرآن على أنها هي التي فتنت الملكين ببابل هاروت وماروت

وتتلخص قصته فتنة الزهرة للملكين بما يلي [1] :

ولما وقع أبناء آدم من بعده في الخطيئة شرعت الملائكة تطعن في أعمال الآدميين ، فأراد الله أن يبتلي الملائكة أنفسهم فأمرهم باختيار ملكين من أفضل الملائكة علماً وزهداً وديانة ، ففعلوا واختاروا هاروت وماروت، فأهبطا إلى الأرض بعد أن ركبت فيهما شهوات الإنسان ، وأمرا أن يجتنبا المعاصي .

في الأرض عرضت لهما امرأة جميلة كالزهرة بين الكواكب ، فغلبت عليهما الشهوة ، فأقبلا عليها ، وراوداها ، فأبت إلا أن يفعلا ما تأمرهما به فيكونا على أمرها ودينها ويسجدا لصنمها ، فامتنعا،وصبرا ردحا ثم أتياها، وراوداها فأبت ثانية واشترطت عليهما إحدى ثلاثة: إما عبادة الصنم، أو قتل النفس ، أو شرب الخمر ، فقالا : كل ذلك لا ينبغي . ثم احتدمت بهما الشهوة فتنزلا أهون المطالب وهو شرب الخمر ، فسقتهما حتى إذا أخذت الخمر منهما وقعا بالزهرة، وهنا مر بهما إنسان فخشيا الفضيحة فقتلاه، وشاءا الصعود إلى السماء فلم يقدرا .. وأما هي فقد كانت تعلمت منهما اللغة التي يُصعد بها إلى السماء ، فصعدت وهناك نسيت ما تنزل به فبقيت مكانها ومسخت نجمة !

ألا نفهم من خلال الرواية هذه أنها أي الزهرة هي نفسها عشتروت عند الفينيقيين ، وفينوس إلهة الحب والجمال عند

---

١ - راجع البيضاوي « أنوار التنزيل » ج ١ ص٧٦ و « القزويني » في « عجائب المخلوقات » ص ٢٢ و ٢٣ و ص ٣٤٣ - ٣٤٦ من تفسير الطبري .

اليونان وميليت عند الرومانيين ، وميترا عند الفرس ، وعشتار بلاد بابل ،وكانت عبادتها في الميثولوجية قائمة باستباحة المنكرات، وارتكاب القبائح الناشئة عن روح العشق في الطبيعة البشرية ، وقد مثلها اليونان امرأة عارية على صور شتى ، واحتفلوا بعيدها ليلاً تحت أشجار الآس في ليالي الثلث الأول من شهر نيسان ؟!

غير أن تمثّل العرب للعزّى حسناء صارت نجمة لم يلبث أن تحوّل إلى توهّمهم إياها شيطانة تأتي ثلاث شجرات في بطن نخلة فتوحي إلى الناس وتكلّمهم .وقد ذكر ابن الكلبي في كتاب الأصنام أن العزى كانت شيطانة تأتي ثلاث سمُرات[1] ببطن نخلة ، فأرسل النبي بعد فتح مكة ، خالد بن الوليد ، وأمره أن يعضد (أي يقطع) السمرات الثلاث ، سمرة بعد سمرة ، إلى أن تخرج إليه العزّى ، فلما عضد خالد السمرة الثالثة ، إذا بحبشية نافشة شعرها ، واضعة يديها على عاتقها ، تصرف بأنيابها ، وخلفها دُبيّة بن حرمي الشيباني ، أحد عبادها ، ثم السُّلمي سادنها ، فلما نظر هذا الى خالد جعل يصيح بها . قال خالد : وأخذني اقشعرار في ظري ، وجعل السلمي يصيح :

أُعزّاءُ شدُي شدّة لا تُكذّبي ،
على خالد ، ألقي الخمار وشمّري
فإنك إلاّ تقتلي اليوم خالداً
فبوئي بذلٍ عاجلٍ وتنصّري

فقال خالد :

يا عزُّ ! كفرانكِ لا سبحانكِ   إني رأيت الله قد أهانك

١- السمرات : جمع سمرة وهي شجرة مقدسة على اسم الزهرة.

ثم ضربهـــا ففلق رأسها ، وقيل جزّلها اثنتين (أي جعلها قطعتين) فاذا هي حُمَمَة (فحم ، رماد) وفي بعض الروايات أنها رمته بالشرر ، حتى احترق فخذه ، ثم رجع فأخبر النبي ، فقال: نعم ! تلك العزّى ، وقد يئست أن تعبد في بلادكم .

وأما حديثهم عن الدبران والثرّيا ، وهما جرمان سماويان ، أولها كوكب أحمر منير خشيته العرب ، وتشاءمت به ، وزعمت أنهم لا يمطرون بنوئه إلا وسنتهم مجـــدبة ، وثانيهما الثريا وهي كوكبان على كاهل الثور ، نـيّران ، في خلالها ثـلاثة كواكب صارت مجتمعة متقاربة كعنقود العنب ، جعلها العرب بمـــنزلة كوكب واحد وسموها النجم ، وهي عندهم مصدر الثروة ، ومانحة الغيث .. فتقول الرواية – وهي من بقايا أساطيرهم – أن الدبران خطب الثريا ، وأراد القمر أن يزوّجه إياها ، فأبت عليه ، وولت هاربة قائلة للقمر : ما أصنع بهذا السبروت (أي المسكين المحتاج) الذي لا مال عنده ؟ فجمع الدبران قلاصه (صغار النوق) يتموّل بها ، فهو يتبعها حيث توجهت يسوق صداقها قدامه .

وزعموا أن «الجدي» قتل نعشاً فبناته تدور به تريده لتثأر بأبيها ؛ وأن «سهيل» كان عشّاراً بمكة مسخه الله نجماً ، فركض (لبط) الجوزاء برجله ، فركضته برجلها ، فطرحته حيث هو ، فضربها بالسيف فقطع وسطها .

ومن أساطيرهم : أن الشعرى اليمانية كانت وأختها الشعرى الشآمية وأخاهما سهيلا مجتمعين معاً ، فانحدر سهيل إلى ناحية اليمن ، بعد أن خاض نهر المجرّة ، وتبعته الشعرى اليمانية ، وعـــبرت

المجرّة فسميت عبورا ، فلما رأت الشعرى الشآمية فراقها إياها بكت حتى غمصت عيناها ، فسميت الغميصاء [1] .

ولهذه الاسطورة صورتان أخريان ، إحداهما : أن سهيلا كان فارساً جميلا ، فخانه الحظ في معركة سماوية وراء المجرة ، فخر مضرجاً بدمه ، فراع أختيه مصرعه ، فعبرت إحداهما المجرة ، ومكثت حزينة عند رأسه ، وقعدت الثانية عن اللحاق بها ، تذرف الدمع حتى غمصت عيناها . والثانية أن سهيلا أقبل من ناحية اليمن ، وأقبلت الشعريان من ناحية الشآم ، فوقف كل من الفريقين على شاطىء المجرة ، وخطبها سهيل فأجابته إلى الزواج ، وعبرت إليه اليمانية ولم تقدر الشآمية أن تعبر ، فوقفت تبكي ، حتى لم تستطع أن تفتح عينيها من شدة البكاء .

وفي باب عبادة العرب للأصنام يروون عن (هبل) أنه كان معتبراً عندهم رب الأرب ، أي في منزلة «زفس» اليوناني ، و «جوبتير» الروماني . وأنه كان يتدخل في الحروب فينصر قبيلة قريش .. وقد شبهه أحد علماء الميثولوجية بـ «أبللون» إله النور والفنون الجميلة. وفي كتاب الاصنام للكلبي اسطورة طريفة تزعم أن وَدّاً وسُواعاً ويغوث ويعوق ونسرا كانوا قوماً صالحين، ماتوا في شهر ، فجزع عليهم ذوو قرابتهم. فقال رجل من قابيل: «يا قوم هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم ، غير أني لا أقدر أن أجعل فيها أرواحا » . قالوا : نعم، فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم، فما زالت العرب تعظمها قرناً بعد قرن حتى عبدتها،

---

١ ــ غمصت العين : سال منها وسخ أبيض في مجرى دمعها .

ويظهر من أقوال الرواة أن يغوث ، وهو علي صورة أسد ، ويعوق وهو على صورة فرس كانا يرمزان إلى عبادة الحيوانات ، وأن نسراً وهو على صورة نسر كان يرمز إلى عبادة الطــير . وبعضهم يرى ليغوث (الأسد) الذي كانت تعبده مذحج صفة قائد جيش . قال أحد الشعراء :

وسار بنا يغوث إلى مراد فناجزناهم قبــل الصباح

فيستدل من هذا أن مذحج كانت تعتقد ، حينما تحمل يغوث معها إلى الحرب ، أنه هو الذي يسير بها ، ويقود رجالها في المعمعة ، وينصرها على أعدائها .

أما سواع التي كانت على صورة امرأة فيظن الباحثون أن صنمها كان رمزاً لعبادة الأمومة . وأمــا (ود) وقد كان على صورة رجل ، فإن علماء الميثولوجية يجعلونه زوجاً للعزى ، ويستنتجون من صفته أنه كان له هيئة رجل محارب . قال ابن الكلبي : « قلت لمالك بن حارثة : صف لي وداً ، حتى كأني أنظر إليه . قــال : « كان تمثال رجــل ، كأعظم ما يكون الرجــال ، وقد ذبر (نقش) عليه حلتان ، متزر بحلة مرتد بأخرى ، عليه سيف قد تقلده ، وقــد تنكب قوساً وبين يديه حربة ، عليهــا لواء ووفضة (جعبة) ، فيها نبــال [1] » قابل بين هذه الصفة التي وصف بها العرب (ودا) وبــين صفة كيوبيد أو اروس إله الحب اليوناني الذي كان من غريب الاتفاق يتنكب عنــدهم السهام والقوس أيضاً ، ولا تنس أن الود عند العرب يعني الحب ،

١ ــ كتاب « الأصنام » ص ٥٦

يظهر لك أنه ليس ببعيد أن يكون العرب قد جعلوه إلهاً للحب الطاهر . ألم يقل الرواة إنـــه كان صنماً لبني عذرة المشهورين بالحب العذري أي بالحب الطاهر ؟

ويحدثونك بعـد عن اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى الالاهات اللواتي كانت قريش تسمّيهنّ الغرانيق العــلى ، أي الشابات السماويات الجميلات، وتطوف حولهن في الكعبة منشدة: «واللاة والعزّى ومناة الثالثة الكبرى ،فانهنّ الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهنّ لترتجى » اعتقاداً منــها أنهن بنات الله ، وأنهن الشوافع إليه ، فلا تردّ شفاعتهن .

يقول العلماء عن اللات : إن معنى اسمهـا الالهة ، وقيل إنها اسم للشمس ، وفي كتاب « الخميس » أنها اسم للزهره ، وقـــد اشتهر كثيرون بعبادتها ، وكان العرب ينسبون إليهـــا فصل الصيف ، كما ينسبون الشتــاء للعزى ؛ ويروى عن عمرو بن لحي قوله : « إن ربكم هبل يتصيف باللات لـــبرد الطائف ويشتو بالعزّى لحر تهامــة » وهي في الميثولوجية العالمية ، إلاهة سامية قديمة من آلهة الجحيم والموت : وابنها الاله العربي ذو الشرى ، ولم يعرف لها زوج. وجعلها بعضهم أفروديت إلهة الجمال اليوناني وفينوس الرومانيين . وكان لها عند البابليين مقدس ينامون فيه، فكانوا يصلون لها ويطلبون منها أن تخاطبهم بالحلم ، وترسل إليهم الأحلام السعيدة . ويقول عنهـــا « مالت براون » الجغرافي الدانياركي انها معبودة تشبه الزهرة السماوية، كانت تعبد في تمثال حجر أسود ، وتجعلها الكتابات النبطية إلهة أمّاً ، ويسميهـــا

المؤرخ هيرودوت: أليلات، ويجعل ابنها « ديو نيسوز » إله الخمرة اليوناني ، وهذا ما حمل بعض الباحثين على القول : إن ابنها ، الاله العربي ، ذا الشرى، أو ذا شراء هو إله للكرمة، أو الخمرة عند العرب .

وأما مناة فكانت أقدم من أختيها : اللات والعزى ، عند العرب ؛ وكانت صنماً منصوباً بأعلى ساحل البحر ، تعظمها العرب جميعاً ، وتعتر عندها (تذبح) وتهدي لها ، وعنها يقول علماء الميثولوجية : إنها مناتو البابلية ، وهي بنت الاله عند البابليين ، كما هي بنت إلاله عند العرب ، بدليل ما جاء في كتاب الأصنام ، من أنه لما أرسل النبي علياً ليهدمها ، ويأخذ ما عليها ، كان في ما أخذه سيفان أهداهما لها الحارث بن أبي شمر الغساني، رأى الباحثون في إهدائهما لها شيئاً من الدلالة على أنها كانت معتبرة إلهة الموت ، تهدى لها السيوف تسهيلاً لعملها في قبض الأرواح ، غير أن نصبها على ساحل البحر دعاهم إلى الظن أنه كان فيها صفة إلهة البحر والعواصف والأنواء ، ويؤيدون قولهم بأن العرب كانوا يلتمسون منها المطر في أيام الجدب، ويستطردون الى القول بأنه يظن بأنها ، وهي في شكل بناء ، كانت إلهة العمران أيضاً .

وفي حديث العرب عن « الصفا والمرْوة » و« أجأ وسلمى » و « أساف » و« نائلة » دليل على أنهم كانوا يختارون من الحجارة لأصنامهم مايشبه الانسان، أوماتوهموه ممسوخاً عن إنسان. وذكر ابن الكلبي أن رجلاً من جرهم اسمه أساف تعشّق في أرض اليمن فتاة

من جرهم أيضاً ، اسمها نائلة ، فأقبلا يحجّان ، فدخلا الكعبة ، فوجدا غفلة من الناس وخلوة في البيت ، ففجر بها فيه ، فمسخا حجرين.. فلما أصبح العرب وجدوهما مسخين، فأخرجوهما فوضعوهما موضعها فعبدتها خزاعة وقريش ومن حج البيت بعد. ومن قبيل حديث أساف ونائلة حديث الصفا والمروة وأجأ وسلمى .

هذا ومما يعد في الميثولوجية أيضاً تعظيمهم لبعض الشخصيات التاريخية ، ونسجهم حولها إطاراً من الأسطورة يرتفع بها عن صفتها الانسانية . فقد روى الدميري في كلامه على السعلاة (أخبث الغيلان) نقلاً عن الجاحظ أن جرهما كان من نتاج الملائكة وبنات آدم. وتفصيل ذلك عندهم أن الملك من الملائكة كان إذا عصى ربه في السماء أهبط إلى الأرض في صورة رجل كما صنع بهاروت وماروت ، فوقع بعض الملائكة على بعض بنات آدم فولدت جرهما. وهذا كاعتقادهم بأن بلقيس ملكة سبأ كانت من أم جنية،وان ذا القرنين كان من أم آدمية وأب من الملائكة، وان عمرو بن يربوع كان متولّداً من السعلاة والانسان [1]

ومن خرافاتهم اعتقادهم بأن للشعراء شياطين تنطق بالشعر على ألسنتهم ، ولهؤلاء الشياطين الشعراء أخبار طريفة معروفة تجدها في كتب الأقدمين كجمهرة أشعار العرب وغيره . ومثل ذلك كانوا يذكرونه عن أرواح خفية كانت تسكن الأصنام وتحل الأوثان فيسمع من أجوافها همهمة وأصوات ، وقولهم في

١ ــ راجع الدميري ، حياه الحيوان الكبرى ج ٢ ص ١٨ – ١٩

الأشجار أنها كانت تنزلها الجن فتسمع فيها راقصة أو مغنية .

ومما يذكر كذلك في أخبارهم عن أساطير الأولين ما حدثوا به عن الجبارين، وهم قوم من بقيـــة عاد يقال لهم العمالقة، رأسهم عوج بن عنق . ومن جميل مايروون عن عوج بن عنق أو عنـاق هذا أن أمه كانت إحدى بنات آدم لصلبه .. هائلـــة مخيفة.. كل إصبع من أصابعها ثلاثة أذرع في عرض ذراعين. وفي رأس كل إصبع منها ظفران حديـدان مثل المنجلين .. وكان موضع جلوسها جريباً من الأرض .. وهي أول من بغى على وجـــه الأرض وعمل الفجور والسحر، وجاهر بالمعاصي.. ولهذا أرسل الله عليها أسوداً كالفيلة، وذئابا كالأبل، ونسوراً كالحمر فقتلوها.. وأراحوا الأرض من شرها !!

ولدت عوجا - رحمه الله - فكان يحتجز السحاب فيشرب منه ، ويتناول الحوت من قرار البحر فيشويه بعين الشمس ، ثم يأكله! وعمّر حتى أدرك الطوفان الذي طبق الأرض وعلا رؤوس الجبال ، فما جاوز ركبتيه ! لابل إنه طلب السفينة ليغرقها !!

وامتد به العمر حتى أدرك موسى الذي لمـــا استقر لقومه الأمر بمصر ، أمر أن يرتحلوا إلى أريحا ، قرية الجبارين الذين سموا بذلك لامتناعهم وطول قامـاتهم وقوة أجسادهم ، وهم كما ذكرنا من العمالقة وبقية قوم عاد .

واختار موسى اثني عشر نقيباً من كل سبط من أسباطهم نقيباً، وبعثهم لما قربوا من المدينة يتجسسون أخبار قومها فلقيهم عوج وعلى رأسه حزمـة من الحطب فوضعهم فوقها - أو في كمه ! -

وسار إلى امرأته ، ونثرهم أمامها يريد طحنهم ، فقالت امرأته: بل خل عنهم حتى يخبروا قومهم فتركهم كما طلبت منه .

ثم ذهب عوج إلى الجبل وقور الصخرة على قدر معسكر موسى وحملها ليطبقها عليهم ، فبعث الله هدهـداً فنقر الصخرة ونزلت من رأسه إلى عنقه فمنعته الحركة .. ووثب موسى وقومه فجهزوا عليه[1] !!

ومن بديع رواياتهم في العصر الجاهلي هذا الجانب الطريف من القصص في أحاديث العرّافين والكهّان من رجال ونساء ، فهنالك «شق» و«سطيح» وهنالك «عفيراء» و «الشعثاء» كان شق في ما يزعمون شق إنسان . له يد واحدة ، ورجل واحدة، وعين واحدة وهو من المتشيطنـة كما يقول القزويني[2] . ويلي شقاً في الشهرة سطيح وتقـول اسطورته : إنه كان يطوى كما يطوى الثوب فلا عظم فيه إلا الجمجمة . وجهـه في صدره ، لا رأس فيه ولا عنق . وعمّر طويلاً (ثلاثمئة سنة وقيـل سبعمئة) وكان لا يقدر على الجلوس إلا إذا غضب، له سرير من جريد أو خوص يوضع فيه إذا أريد نقله من مكان إلى مكان ، وإذا أريد استخباره عن المغيّبات فانه يحرك سقـاء اللبن فينتفخ ويمتلىء ، ويعلوه النفس ، فيسأل فيخبر عما سئل عنه !!

لشق هذا شبيه في خرافات أهل أوربة ، وأفريقية، والمحيط

---

١ – واجع الديار بكري ، تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ، ص : ٧١ — ٧٢ (مصر ١٣٠٢)

٢ – وكتاب « المستطرف للابشيهي » ج ٢ ص ١٢٨

الهندي ، وجزر المالديزه . وهو عندهم نوع من الشياطين يتردد الى الغابات والقفار لابساً ثوباً راعباً . له عين واحدة ، واذن واحدة، وساعد واحد ، وساق واحدة ، لكن هذا لا يمنعه من الركض، وهو يستطيع ان يتنكر في ثوب رجل كامل، ذاك بأن يستعير النصف الذي ينقصه فلا يعرف عندئذ ، فيغازل الجميلات المتكبرات فيتزوجن به ، ثم يظهر لهن بعد الزواج في ثوبه الحقيقي ويا خيبة آمالهن حينذاك !!

أمثال العرب

ولن يفوتنا في ختام هذا البحث عن القصة الجاهلية أن نذكر ذلك النوع من النثر الجاهلي الذي يسمونه «المثل» وهو كما يستفاد من كتب الأقدمين لم يكن يفهم منه أنه مجرد جملة وعبارة جرت كالحكمة على ألسنة الموهوبين ، وانما هو في حقيقته رمز لقصة كان الرواة يسوقونها للاعتبار بما تمخضت عنه من كلمة حكيمة . كتب احمد أمين في كتابه « فجر الاسلام ص ٦» قال : « المثل كلمة مأخوذة من العبرية (مشل) وتطلق على الحكمة والحكاية القصيرة ذات المغزى ، وعلى الأساطير » ومن تأمل معنى كلمة الأمثال في القرآن وجدها تحمل معنى القصص كما وجدها تحمل معنى الجمل والصور التمثيلية التي تساق للعبرة .

ومن الشخصيات التي ضربت لنا في هذا الصدد روائع الأمثال وكان ضاربها في الأولين مثلاً مضروباً للآخرين شخصية « لقمان بن عاد » . وهو غير لقمان الحكيم الذي جاء ذكره في

القرآن – حسب رأي عبد المجيد عابدين –في كتابه « الأمثال »

قيل إن لقمان هو الذي بنى سد مأرب ، وقد ضرب به العرب المثل في القوة والسلامة وطول العمر، وكان عظيم الرأس، وكان أكولا، يتغذى بجزور (خروف أو جمل) ويتعشى بجزور.

آمن هذا الرجل العظيم بالنبي « هود » إذ كذّبه قومه . فتوالت عليهم سنون عجاف . فبعثوا طائفة منهم إلى مكة ، يستسقون لهم الله تضرعا عند بيته المحرّم ، فكان لقمان من رؤساء هذه البعثة ، ونودي من جانب السماء أن يتمنى فسأل أن يعمّر ، فخيّر بين أن يبقى كما تبقى سبع بعرات سمر ، من ظباء عفر [1] ، في جبل وعر ، لا يمسها قطر ، أو بقاء سبعة أنسر ، كلما هلك نسر خلف من بعده نسر ، فاختار عمر النسور ، وكان يأخذ فرخ النسر من وكره ، فلا يزال عنده حتى يموت ، وكان آخر الأنسر عنده « لبد » وهو الذي يقول له : « انهض لُبد فأنت نسر الأبد » وقد ضرب المثل بهذا النسر « أخنى عليها الذي أخنى على لبد » ولم يقصر لقمان هذا في استبقاء نسوره، والحرص عليها ، ولكن القدر غلبه على أمره ، ويقال إن كل نسر من هذه الأنسر عاش ثمانين سنة .

قيل إن لقمان هذا هو صاحب المثل « ويل الشجي من الخلي» وحكاية المثل أن لقمان بن عاد نزل بقبيلة، فأبصر ذات يوم امرأة قد انتبذت من بيوت الحي ، فانبرى لها رجل ، فمضيا جميعاً حتى انفردا، وذلك بحيث يرى لقمان ويسمع . فقالت المرأة للرجل : إني

١ – الظباء العفر . أضعف الظباء ركضا .

أتماوت على أهلي فاذا أسندوني في رَجْمي (قبري) جئت فأخرجتني ، وتنكرت فلم يعرفني أحد . فقال الرجل : إفعـــلي ... وكان الزوج اسمه «الشجي» والخليل اسمه «الخلي» فقــال لقمان : ويل الشجي من الخلي يريد ويل الزوج من العشيق ، فذهبت مثلا .

ويقال أيضاً : أقبل لقمان بن عاد ذات يوم ، فبينا هــو يسير إذ أصابه عطش ، فهجم على مظلة في فنائها امرأة ، تـــداعب رجلا ، فاستسقى لقمان فقالت المرأة : اللبن تبغى أم الماء ؟ فقال لقمان : أيهما كان ولا عداء . فقالت المرأة : أما اللبن فخلفــك ، وأما الماء فأمامك . قال لقمان : المنع كان أوجز . فبيـــنا هو كذلك إذ نظر إلى صبي في البيت يبكي فلا يكترث له، ويستسقي فلا يسقى ؛ فقال : إن لم يكن لكم في هذا الصبي حاجة دفعتموه إلي فكفلته ، فقالت المرأة : ذاك إلي هانىء زوجي ... فقــال لها لقمان : أو هانىء من العدد ؟ ثم قال لها : من هذا الشاب الى جنبك ؟ فقـــد علمت أنه ليس ببعلك . قالت : هذا أخي . قال لقمان : رُبَّ أخ لك لم تلده أمّك ، ثم نظر إلى أثر زوجها في فتل شعر الخيمة ، فعرف أنه أعسر ، فقال : ثكلت الأعيسر أمّه ، لو يعلم العلم لطال غمه ! فذعرت المرأة مـــن قوله ذعراً شديداً ، فعرضت عليه الطعام والشراب ، فأبى وقال : المبيت على الطوى حتى تنال به كريم المثوى ، خير من إتيان مـــا لا تهوى.. ثم مضى حتى إذا كان مع العشاء إذا هو برجل يسوق إبله وهو يرتجز ويقول :

روحي إلى الحيّ قانّ نفسي
رهينــة فيهم بخير ِعرس
حسّانة المقـلة ذات أنس
لا يشترى اليوم لهـا بأمس

فعرف لقمان صوته ، ولم يره ، فهتف به : يا هانيء . فقال : ما بالك ؟ قال :

يا ذا البجاد [1] الحلَكة
والزوجــة المشتركــة
عَشْ رويــداً إبلكه
لستَ لمـن ليست لكَهْ

فقال الرجل: نوّر ، لله أبوك ! فقال لقمان : إني مررت وبي أوام ، فدفعت إلى بيت فإذا أنا بامرأتك تغازل رجلاً ، فسألتها عنه ، فزعمته أخاها ، ولو كان أخاها لجلـّى عن نفسه ،وكفاها مؤونة الكلام ، فقال هانيء : وكيف علمت أن المنزل منزلي ، والمرأة امرأتي ؟ قال:عرفت عقائق هذه النوق في البناء،وأثر يدك في الأطناب . فقال : صدقتني فداك أبي وأمي . وكذبتني نفسي فما الرأي ؟ قال لقمان : هل لك علم ؟ قال : نعم ، بشأني ، قال لقمان : كل امرىء بشأنه عليم. قال هانىء : مـاذا أفعل ؟ قال لقمان ؟ تحمي نفسك ، وتحفظ عرسك . قـال هانيء : أفعل . قال لقمان : من يفعل الخير يجد الخير . ثم قال : الرأي أن تقلب الظهر بطناً ، والبطن ظهراً ، حتى يستبين لك الأمر أمراً (يريد

١ ــ الثياب المخططة .

أن يتردد الرجل على بيته في غير المواعيد التي ألفتها منه زوجه) قــال هانيء : أفلا أعالجها بكيّة ، توردها المنيّة ؟ قال لقمان : آخر الدواء الكي. ثم انطلق الرجل حتى أتى امرأته فقص عليها القصة ، وسلّ سيفه ، فلم يزل يضربهـــا حتى بردت ، وبقيت كلمات لقمان في هذه الحكاية أمثالاً مضروبة [1] .

أيام العرب

وإلى جنب هذه القصص التي ضمّت أمثال العرب وأساطيرهم، اشتهرت قصص عن أيام العرب كيوم حليمة ، وحرب البسوس، وحرب داحس والغبراء ، وحرب الفجـــار ، ويوم ذي قار وأمثالها « وهي من أغزر ينابيع القصص القومي البطولي الذي تتمثل فيه صور من الملاحم العربيـــة كانت تحرك أريحيات القوم وتثير العزّة والنخوة في جموعهم ، وبقيت حتى أجيالنا الأخيرة مورداً عذباً للقصص الشعبي والقصص الفني على السواء [2] . »

---

١ – راجع الميداني في كتابه « مجمع الأمثال » ص ٣٠٣ ــ ٣٠٤ و « كتاب التيجان » لعبد الملك بن هشام ص ٦٩ – ٧٨ و « أخبار عبيد » في الكتاب نفسه ص ٣٥٨ ــ ٣٦٧ .

٢ – حسين مروة ــ القصة العربية خــلال التاريخ ــ الثقافــة الوطنية السنة الخامسة العدد ٢ و ٣

القصة في الاسلام

قصص القرآن ـ قصص الأنبياء (الاسرائيليات) ـ المعراج
أخبار عبيد ـ قصص الحب والغرام

ظن الكثيرون أن الدين الاسلامي ، بما هدم من أوثان ، وألغى من معتقدات وخوارق ميثولوجية قد جنى على القصة العربية ، وحرمها من ينبوع ثرّ ، كان منتظراً أن تنهل منه على ظمأ .. لكن هؤلاء فاتهم أن الدين الاسلامي بما استخدمه في كتابه الكريم من روائع الأمثال والقصص ، قد عوّض القصة العربية عمّا خسرته بخسران الميثولوجية، وقدّم لها منهلاً وردته فارتوت، وفاض القرآن بما يعتبر أول صورة من صور القصص الفني ونقطة البدء في دراسته عامة .

أ ـ قصص القرآن

استخدم القرآن المثل والقصة ، كما استخدمتها سائر الديانات من قبله ، وعرف ما كان لهما من سلطان على قلوب العالمين ،

فخاطب به الله النبي قائلاً : « نحن نقصّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك من هذا القرآن » وإنّ من يعرف بعدُ ما كان يُروى عن النّضر بن الحارث بن كلدة ، ابن خالة النبي ، وكيف كان يجلس الى الناس كما يجلس محمّد عليه السلام ، يقصّ عليهم أخبار فارس ، وقصص رُستم واسفنديار قائلاً لهم ، وقد رأى تأثّرهم بقصص محمد : إن محمداً يحدثكم بحديث عاد وثمود ، وما أحاديثه إلاّ أساطير الأوّلين ، وأنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه ، أحدّثكم بحديث « رُستم » و « إسفنديار » وأخبار الأكاسرة .. ثم إذا فرغ من قصصه ، قال : بماذا محمد أحسن حديثاً مني [1] ؟! أقول : إنّ من يعرف ما كان يُروى عن النضر هذا يعرف ولع العرب بالقصص ، وشغفهم به في مستهل الدعوة المحمدية، ويعرف كذلك أن القصص القرآني لم يكن إلا استجابة لهذا الولع ، وأن الآية القرآنية التي نزلت تصف قصص القرآن بأنه «هو القصص الحق» لا يبعد أن تكون تعريضاً بالنضر هذا وأمثاله من الذين راحوا يتصدّون للدعوة النبوية ، ويزعمون أنهم منافسوها في القصص، ولا سيما النضر بن حارث الذي رووا عنه أنه هو الذي قال : سأنزل مثل ما أنزل الله .

لم يكن قصص القرآن إذن سوى استجابة لما أظهره الشعب من ميول نحو معرفة ما جرى في الزمان ، أو حكي في العصور ، ولذا فقد حفل القرآن بأخبار الأولين ، وقصص حوادثهم التي

---

١ ـ راجع الرواية في « سيرة ابن هشام » ج ١ ص ١٩٠ وفي « فجر الاسلام » لأحمد أمين ص ٦٨

بنى عليها فكرته في التوجيه ، وأسلوبه في الدعوة ! « فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب » ومن هنا أمكننا القول إن القصة في القرآن هي أول قصة في لغتنا العربية عرفت «الالتزام» وحددت «رسالة الأدب» بمعناه الانساني الذي يفهم الأدب على أساس وظيفته الاجتماعية التي تدعو الناس كلهم إلى الخير وتبعدهم عما ألفوه من خلق وعادات وآراء زائفة وعقائد وعبادات باطلة ، وبأسلوب هو الغاية في تصوير الظالمين والطغاة والمستكبرين ونتيجتهم التي انتهوا اليها في صراعهم مع قوى الخير والنور ، وهي نتيجة ليست تختلف عن النتيجة التي تنتهي بها القصة الشعبية في كثير من الآداب العالمية من انتصار البطل ، والقضاء على الظالم والطاغية . إقرأ قصة إبليس أو الشيطان مع أبينا آدم ، وتأمل موقف ابراهيم من أبيه وقومه وهو يسألهم عما يعبدون فيجيبونه أن معبوداتهم هي الأصنام ، فيسألهم عما تقدمه لهم هذه الاصنام من خير ، وتيسر لهم من منافع ويعجزون عن الإجابة ، ويعرفون أنه التقليد ، وأنهم ما عبدوها إلا لأنهم وجدوا آباءهم كذلك يفعلون .. انظر في كل هذه السور والمواقف القصصية تجد مصداق ما ذكرنا ، تجد لوناً من القصص الانساني الموجه يدعو فيه القرآن الى الدين الإسلامي ومبادئه دعوة تعتمد في زلزلتها للأفكار الزائفة والعادات السقيمة على أسلوب الخبر والحكاية ، وتستخدم أرقى ماوصل اليه أسلوب في التوجيه أعني به أسلوب الإفاضة والإيحاء الذي يقول به المحدثون من علماء النفس ، والذي يرونه أدعى

لاستثارة العواطف ، وجذب الانتباه من رصّ الحكم والمواعظ بصورة متكلفة يكون فيها المطلب واضحاً والغرض مكشوفاً .

نوع القصص القرآني

هناك نوعان من القصص في القرآن : نوع يمكن أن نسمّيه القصص التاريخي وهو القصص الذي يدور حول بعض الشخصيات التاريخية من أمثال الأنبياء والرسل . ونوع وصفه الشراح والمفسرون بالقصص التمثيلي ، وهو النوع الذي يحتمل أن تكون القصة فيه من نوع التمثيل أو التخيل[1] وفي كلا النوعين استعمل القرآن أسلوب القصة القصيرة ، أو الاقصوصة ، فجاءت أقاصيصه على نحو يمكننا اعتباره نموذجاً كاملاً ، أو صورة فنية من صور الخبر والحكاية أو الأقصوصة بمفهومها الحديث . راجع تعريف الأقصوصة ، وانظر معي قصص القرآن التاريخية

---

١ ـ وقد أضاف الدكتور محمد أحمد خلف الله في كتابه « الفن القصصي في القرآن » نوعاً ثالثاً الى هذين النوعين هو نوع القصص المبني على أسطورة مستنداً في ذلك الى ما ذهب إليه بعض الأئمة الأقدمين كالامام الرازي في تفسيره (ج ٤ ص: ٩٥١) وما قرره الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده (في المنار ج ١ ص ٠ ٣٩٩) حين أفادا أن القرآن الكريم يحكي من عقائد القوم الحق والباطل لا للحمل على الاعتقاد بهذه الأساطير ، وإنما لأستخراج العظة والعبرة وهو رأي يستحق أن يقف عنده الباحث ويناقشه لما يترتب عليه من أمور خطيرة ولكننا نكتفي هنا فقط باشارتنا إليه رادين من يطلب المزيد من خبره إلى المرجع المذكور .

مثلا وكيفية صياغة القرآن لها كقصص عـــاد وثمود ، ونوح والطوفان ، ولوط وقومه ، وعيسى ومحاورة المولى له ومحاورته مع المولى .. أقول : راجع معي هذه الأقاصيص تجد أن القرآن لم يعتمد فيها جميعاً على التاريخ بحسب ما جرى في الواقع أو تسلسل به الزمن تماماً ، ولا التزم بتصوير الأحـــداث التي دارت حول شخص أو حصلت في أمة تصويراً تاماً كاملاً ، وإنما اكتفى منها باختيار ما يساعده على الوصول إلى مطلبـــه ، أو التأثير الواحد المعين الذي يريد إثارته في نفس السامـــع بأسلوب حمّل فيه الألفاظ من الايحاءات الأدبية ، والإثارات الفنيـــة ما جعل تلك الأحداث تخرج عن معناها التاريخي أو الاخباري الى المعنى الأدبي أو الفكري الذي يثير الانفعال أو يحرّك العواطف، أو يوحي بالعظة والعبرة متجنباً تلك التفصيلات ، وحاذفاً منها كل ما هو ليس بحاجة إلى ذكره ، الأمر الذي نقول به نحن اليوم ونجعله أساساً في بناء القصة القصيرة وطرق معالجتها .

عناصر القصة في القرآن

عناصر القصة في القرآن هي عناصر القصة الأدبية القصيرة نفسها من حادثة ، وأشخاص تقع لهم الحـادثة ، وحوار يجري بين الشخصيات .

أما عنصر الحادثة فهو العنصر البارز في الأقاصيص التي كان يقصد منها إلى التخويف والإنذار، كالحوادث التي وقعت لصالح مع ثمود ، وحديث شعيب وقومه ، وقارون وفرعون وهامان،

وخبر عيسى إذ يخلق من الطين كهيئة الطير بإذن الله ، فينفخ فيه فيكون طيراً باذن الله، ويبرىء الأكمه والأبرص ويخرج المرتى؛ وهي حوادث قد اختيرت لتلائم حال النبي في أول عهده بالدعوة، واعلانه أنه رسول رب العالمين ، القصد منها تهديد المكذبين ، وإشاعة الرعب في قلوبهم ليعدلوا عن موقفهم ، ويعتبروا بالحوادث التي ألمّت بالأمم قبلهم، وأصابت الجماعات، حين كذبوا برسل ربهم وأنكروا آياته ؛ وهي تكون أحياناً نتيجة تدخّل القضاء والقدر في القضية بإتيان الآيات، وإجراء المعجزات الخارقة التي يطلبها القوم دليلاً على صدق الدعوة وصحة الرسالة، وذلك من أمثال ما ورد في القصة التالية : « إذ قال الله يا عيسى اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيّدتُكَ بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا ، وإذ علّمتُكَ الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ، إذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني ، فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني، وتبرىء الأكمه والأبرص باذني ، وإذ تخرج الموتى باذني ، وإذ كففتُ بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إنْ هذا إلاّ سحر مبين ، وإذ أوحيتُ إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي ، قالوا آمنّا واشهد بأننا مسلمون . إذ قال الحواريّون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربّك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ، قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئنّ قلوبنا ، ونعلم أن قد صدَقتنا، ونكون عليها من الشاهدين . قال عيسى بن مريم اللهمّ ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأوّلنا

وآخرنا ، وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين .
قال الله أني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين » .

وأما الشخصيات ، وهم الذين تسند اليهم الأعمال الرئيسية في القصة ، ويضطلعون بدور البطولة فيها ، فقد رسمهم القرآن متبعاً في رسمهم وتصويرهم طريق الخلق الفني ، والوصف غير المباشر الذي يمنح الشخصية فرصة التعبير عن نفسها ، فتفصح هي عن مكنوناتها ، بأحاديثها وتصرفاتها ، بما يتفق مع البيئة ، والظروف المحيطة ، والأزمات القائمة بين النبي ومعاصريه. وإذا في القصص القرآني شخصيات تغدو نماذج ، كشخصية إبليس الذي يعتبر نموذج للفتنة والإيقاع بالشر ، وشخصية يوسف الذي يعتبر مثالا للجمال ، والحرص على الوفاء لسيده ، والخوف من ربّه وعدم التورّط في الإثم أمام المرأة التي راودته في بيتها عن نفسه . وشخصية المراة المكتملة الأنوثة (امرأة العزيز) وما يصاحب هذه الأنوثة من محبة للجمال وحرص على الفتنة والإغراء ، إلى غير هذه الشخصيات التي رسمها القرآن ، وصوّر عواطفها وغرائزها الأوّلية ، ومصالحها الخاصة ، وعقائدها الباطنة ، وأهدافها ومثلها العليا ومواقفها الحرجة ، وكفاحها ضد الشر والبهتان .

بقي الاسلوب الذي اتبعه القرآن في رسم الشخصيات وعرض الحوادث ، وهو أسلوب يستمد خصائصه من محيط القوم ، ولغتهم العادية ، وأحاديثهم المألوفة ، وطرقهم في التخاطب والمشافهة

وغير ذلك مما يساعد على تصوير الانفعال ، وبعث الحركة في جمل بهيّة منغومة تكاد ألفاظها أحياناً ترنّ ، وأحياناً تقطر ليونـة وعذوبة ، وفي حوار يجري مع طبيعة العاطفة يمثلها قوية صاخبة أو هادئة مطمئنة . وفي ما يلي نماذج من قصص القرآن تمثـل تطوره الفني من خبر عادي يصوّر حالة أو موقفاً أو حادثـة بأسلوب مسجوع ، وألفـاظ رنانة ، إلى أقصوصة أخذ فيهـا الأسلوب يبتعد عن السجع قليلاً قليلا ، ويقترب مـن الأسلوب القصصي الذي يشبه أساليب الأحاديث والتخاطب ، إلى قصـة فنية رائعة تكامل فيها البناء القصصي وجرى عـلى الأسلوب الذي يبدأ بالمقدمة ويعرض الذروة ثم ينتهي إلى الحل .

من سورة القمر

« اقتربت السّاعة وانشقّ القمرْ . وإن يروا آيـة يُعْرضوا ويقولوا سِحْرٌ مستمرْ ، وكذّبوا واتّبعوا أهواءهم وكلّ أمْرٍ مستقر . ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مُزْدَجَرْ . حكمـةٌ بالغة فما تغني النُّذُرْ . فتولَّ عنهم يوم يـدعو الداعي إلى شيء نُكُـر . خُشّعاً أبصارُهم يخرجون من الأجداث كأنّهم جرادٌ منتشِر . مُهْطعين إلى الداعي يقول الكافرون هذا يومٌ عَسِرْ . كذّبتْ قبلهم قوم نوحٍ فكذّبوا عبدنا وقالوا مجنونٌ وازدُجرْ . فدعا ربّه أنّي مغلوبٌ فانتصِرْ . ففتحنا أبواب السماء بمـاءٍ منهمِرْ . وفجّرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمْرٍ قد قُدِرْ . وحملناه على ذاتِ ألواحٍ ودُسُرْ . تجري بأعيننا جزاءً لمن كان

كَفَرْ . ولقد تركناها آيةً فهلْ من مُدّكِرْ . فكيف كان عذابي ونُذُرْ . ولقد يَسّرْنا القرآن للذكر فهل من مدّكر فكيف كان عذابي ونُذُرٌ . إنّا أرسلنا عليهم ريحاً صَرْصَراً في يوم نحسٍ مستمر . تنزع النّاسَ كأنهم أعجاز نخل مُنقَعِرْ . فكيف كان عذابي ونُذُرْ . ولقد يَسّرْنا القرآن للذّكرْ فهل من مُدّكِرْ . كذّبت ثمود بالنّذُر . فقالوا أبَشَراً منّا واحداً نتّبعُه إنّا إذَنْ لفي ضلالٍ وسُعُر . أأُلقيَ الذّكر عليه من بيننا بل هو كذّابٌ أشِرْ. سيعلمون غداً مَنِ الكذّاب الأشِرْ »

من قصص موسى

« ولمّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عليه أمّةً من الناس يسقون. ووجد من دونهم امرأتين تذودان، قال : ما خَطْبُكُما ؟ قالتا : لا نسقي حتى يصدر الرّعاء ، وأبونا شيخ كبير . فسقى لهما ، ثم تولّى إلى الظلّ ، فقال : ربِّ إنّي لِما أنزلت إليّ مِنْ خيرٍ فقيرْ . فجاءته إحداهما تمشي على استحياء ، قالت : إنّ أبي يدعوك ليجزيك أجْرَ ما سقيتَ لنا . فلمّا جاءَهُ وقصّ عليه القصص ، قال : لا تخف ، نجوت من القوم الظالمين . قالت إحداهما : يا أبَتِ استأجِرْهُ إنّ خيرَ من استأجَرْت القويّ الأمين . قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتيّ هاتين على أن تأجُرَني ثماني حجج فان أتممت عَشْراً فمن عندك ، وما أريد أن أشقّ عليك ، ستجدني إن شاء الله من الصالحين . قال : ذلك بيني وبينك ، أيّما الأجَلين قضيت فلا عدوان عليّ ، والله على

ما نقولُ وكيل . »

قصة يوسف

يقول محمد أحمد خلف الله عن قصة يوسف هذه : « إنها قصة انسانية تلعب فيها العواطف البشرية الدور الأول فتؤثر في سير الأشخاص، وتوجههم نحو الخـــير، أو نحو الشر في حياتهم، ثم هي قصة رحبة واسعة تتعدد فيها الشخصيات وتتكوّن الأحداث ، ويجري فيهـــا الحوار هيناً ليّناً رقيقاً ، وتتوزع فيها العناصر التوزيع الذي يتطلبـــه الفن القصصي ، فهي موزعة بمقـــدار ، تظهر وتختفي حسب الظروف الطبيعية وحسب ما يحيط بالأبطال من أحداث . ثم هي من حيث البناء القصصي أجود قصة في القرآن ففيها وحـدة الموضوع ، وإحكام التصميم وفيها جودة الحبكة . وفيها الانتفاع بالحوادث الاستطرادية [١] »

المقدمة أو رؤيا يوسف

الر ، تلك آيات الكتاب المبين. إنـّا أنزلناه قرآناً عربياً لعلـّكم تعقلون . نحن نقصّ عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين . إذ قال يوسف لأبيه :

---

١ ـــ محمد أحمد خلف الله « الفن القصصي في القرآن » راجعه ففيه أوفى دراسة للقصص القرآني عامـــة وقصة يوسف بصورة خاصة . وعليه اعتمدنا في دراسة هذا الباب .

يا أبت إنيَ رأيت أحدَ عشرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتُهم لي ساجدين . قـــال : يا بنيّ لا تقصُص رؤياك على إخوتك . فيكيدوا لك كيداً، إنّ الشيطان للإنسان عدوٌ مبين. وكذلك يجتبيك ربّك ويعلـّمك من تأويل الأحاديث،ويتمّ نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمـّها على أبويك من قبـلُ ابراهيم وأسحاق إنّ ربّك عليم حكيم .

بدء الحبكة أو المؤامرة لاغتيال يوسف

لقـــد كان في يوسف وإخوته آياتٌ للسائلين . إذ قالوا : ليوسُفُ أحبّ إلى إبينا منـّا ونحن عصبة ، إن أبانا لفي ضلالٍ مبين ، اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخلُ لكم وجه أبيكم ، وتكونوا من بعـــده قوماً صالحين . قال قائل منهم : لا تقتلوا يوسف ، وألقوه في غيابة الُجبّ يلتقطهُ بعض السيارة إن كنتم فاعلين.قالوا:يا أبانا ما لك لا تأمنـّا على يوسف وإنـّا له لناصحون أرسله معنا غداً يرتعْ ويلعبْ وإنا له لحافظون.قال:إني ليَحزُنني أن تذهبوا به ، وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا : لئن أكـله الذئب ونحن عصبة انّا إذن لخاسرون . فلمـّا ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا اليـــه َلتُنبئنـّهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون .

وجاؤوا أباهم عِشاءً يبكون ، قالوا:يا أبانا انّا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمنٍ لنا ولو كنـّا صادقين . وجاؤوا على قميصِه بدمٍ كذبٍ . قـــال : بل

سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميل والله المستعان على ما تصفون. وجاءت سيّارة فأرسلوا وارِدَهم فأدلى دَلوه قال : يا بُشرى هذا غلام، وأسرّوه بضاعةً والله عليم بما يعملون. وشروه بثمن بخسٍ دراهمَ معدودة وكانوا فيه من الزاهدين . وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته : أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ، وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالبٌ على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ولما بلغ أشُدّه آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين .

يوسف وامرأة العزيز أو الصراع بين العقل والعاطفة .

وراودته التي هو في بيتها عن نفسه، وغلّقت الأبواب، وقالت : هيت لك . قال ، معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون. ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء. إنه من عبادنا المخلصين . واستبقا الباب وقدّت قميصه من دبر وألفيا سيّدها لدى الباب، قالت : ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يُسجن أو عذابٌ اليم ؟ قال : هي راودتني عن نفسي ، وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قُدّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين. وإن كان قميصه قُدّ من دُبُرٍ فكذبت وهو من الصادقين. فلما رأى قميصه قُدّ من دُبُرٍ قال : إنه من كيدكنّ إنّ كيدكنّ عظيم. يوسف أعرض عن هذا ، واستغفري لذنبك ، إنكِ كنتِ من الخاطئين. وقال

نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ، قد شغفها حباً، إنا لنراها في ضلال مبين. فلما سمعت بمكرهن أرسلت اليهنّ وأعتدت لهنّ متكئاً ، وآتت كلّ واحدة منهنّ سكـّيناً ، وقالت : اخرج عليهنّ فلما رأينه أكبرنه وقطـعن أيديهنّ وقلن: حاشا الله ماهذا بشراً إنْ هذا إلاّ مَلكٌ كريم. قالت :فذلكنّ الذي لمتنـّني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، ولئن لم يفعل ما آمره لَيُسْجَنَنّ وليكوَنن من الصاغرين . قـال : ربّ السجنُ أحبُّ اليّ مما يدعونني اليه وإنْ لا تصرفْ عني كيدهنّ أصبُ اليهنّ وأكنْ من الجاهلين . فاستجاب له ربـه فصرف عنه كيدهن انه هو السميع العليم . ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات لَيَسْجُنُنّهُ حتى حين .

يوسف في السجن

ودخل مع السجن فَتَيان ، قال أحدهما إني أراني أعصِرُ خمراً . وقال الآخر : إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تـأكل الطير منه . نبّئنا بتأويله انّا نراك من المحسنين . قال لا يأتيكما طعام تُرزقانه إلاّ نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما،ذلكما مما علّمني ربي إني تركتُ ملّة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون. واتـّبعت ملة آبائي ابراهيم واسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نُشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى النـاس ، ولكنّ أكثر الناس لا يشكرون . يا صاحبَي السجنِ أأرباب متفرقون خيرٌ أم الله الواحد القهار ؟. ما تعبدون من دونه إلاّ

أسماء سمّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، وإن الحكم إلاّ لله، أمرَ ألاّ تعبدوا إلاّ اياه، ذلك الدين القيّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون .يا صاحبي السجنِ أمّا أحدكما فيسقي ربه خمراً، وأمّا الآخر فيُصلب فتأكل الطير من رأسه ، قضي الأمر الذي فيه تستفتيان . وقال للذي ظنّ أنّه ناجٍ منهما : اذكرني عند ربّك فأنساه الشيطان ذِكر ربّه فلبث في السجن بضع سنين . وقال الملك : إني أرى سبع بقرات سمانٍ يأكلهنّ سبع عجافٌ وسبعَ سنبلات خضرٍ وأخَر يابساتٍ يا أيّها الملأ افتوني في رؤياي إنْ كنتم للرؤيا تعبرُون . قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين. وقال الذي نجا منهما وادّكر بعد أمّةٍ : أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون .

يوسف يفسّر رؤيا الملك فيطلق سراحه

يوسف أيّها الصدّيق أفتنا في سبع بقرات سمانٍ يأكلهنّ سبعٌ عجافٌ ، وسبعِ سنبلات خضْرٍ وأُخَرَ يابسات لعلّي أرجع إلى الناس لعلّهم يعلمون. قال : تزرعون سبع سنينَ دَأبا فما حصدتم فذروه في سنبله إلاّ قليلا مما تأكلون . ثم يأتي من بعد ذلك سَبْعٌ شِدادٌ يأكلن ما قدّمتم لهنّ إلاّ قليلا ممّا تُحصنون . ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يُغاث الناس وفيه يعصِرون . وقال الملك : ائتوني به ، فلمّا جاءه الرسول ، قال : ارجع الى ربّك فاسأله ما بالُ النسوة اللاتي قطّعن أيديهن إن ربّي بكيدهنّ عليم . قال : ما خطْبكنّ إذ راودتُنّ يوسف عن

نفسه ، قلن . حاشا لله ما علمنا عليه من سوء . قـالت امراة العزيز : الآن حصحص الحق أنا راودته عـن نفسه وإنه لمـن الصادقين . ذلك ليعلم أنّي لم أخنه بالغيب وإن الله لا يهدي كيد الخائنين . وما أبرّىء نفسي إنّ النفس لأمّارة بالسوء الاّ مـا رحم ربّي إنّ ربي غفور رحيم .

يوسف على خزائن مصر

وقال الملك : ائتوني به أستخلصه لنفسي. فلمّا كلّمه قال: إنك اليوم لدينا مكينٌ أمين ، قال : اجعلني على خزائن الارض إني حفيظ عليم . وكذلك مكنـّا ليوسف في الارض يتبوأ منها حيث يشاء نُصيب برحمتنـا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين . ولأجر الآخرة خيرٌ للذين آمنوا وكانوا يتقون .

يوسف مع إخوته من جديد وهم لا يعرفونه

وجاء إخوة يوسف ودخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون . ولمـّا جهزّهم بجهازهم قال ائتوني بأخٍ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين . فان لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون . قالوا سنراود عنه أباه وإنـّا لفاعلون وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونهـا إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون . فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا مُنع منـّا الكيل فأرسلْ معنا أخانا نكتلْ وإنا له لحافظون . قال : هل آمنُكم عليه إلاّ كما أمِنتُكم على أخيه من قبل فالله خيرٌ حافظاً

وهو أرحم الراحمين. ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم رُدّت إليهم،قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا رُدّت الينا، ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ، ذلك كيل يسير . قال لن أرسله معكم حتى تؤتوني موثقاً من الله لتأتنني به إلاّ أن يحاط بكم. فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل . وقال : يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ، وما أغني عنكم من الله من شيء ، إن الحكم إلا الله ، عليه توكلت ، وعليه فليتوكل المتوكلون .

يوسف يتهم إخوته بالسرقة

ولمّا دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يُغني عنهم من الله من شيء إلاّ حاجةً في نفس يعقوب قضاها ، وإنه لذو عِلْمٍ لما علّمناه ، ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون ولما دخلوا على يوسف آوى اليه أخاه ، قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون . فلما جهّزهم بجهازهم جعل السّقاية في رَحْل أخيه ، ثم أذّن مؤذّن أيتها العِيرُ إنكم لسارقون . قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون . قالوا نفقد صُواعَ الملك ، ولمن جاء به حِمْلُ بعير ، وأنا به زعيم .قالوا: بالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين. قالوا : فما جزاؤه إن كنتم كاذبين . قالوا جزاؤه من وُجد في رحله فهو جزاؤه ، وكذلك نجزي الظالمين . فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ، ثم استخرجها من وعاء أخيه، كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله،

نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم. قالوا : إن يسرق فقد سرق أخٌ له من قبل ، فأسرّها يوسف في نفسه ، ولم يبدها لهم . قال : أنتم شرٌ مكانا والله أعلم بما تصفون . قالوا : يا أيها العزيز إنّ له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه ، وإنّا نراك من المحسنين. قال : معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، إنّا إذن لظالمون . فلما استيئسوا منه خلصوا نجيّاً قال كبيرهم : ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله، ومن قبل فرّطتم في يوسف ، فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي ، أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين . ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق ، وما شهدنا إلاّ بما علمنا ، وما كنا للغيب حافظين . واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنّا لصادقون قال: بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم . وتولى عنهم وقال : يا أسفا على يوسف ! وابيضّت عيناه من الحزن فهو كظيم . قالوا : تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حَرَضاً أو تكون من الهالكين. قال: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون . يا بني اذهبوا فتحسّسوا من يوسف وأخيه،ولا تيأسوا من روح الله،إنه لا ييأس من روح الله إلاّ القوم الكافرون.

انكشاف السر أو الحل

فلما دخلوا عليه قالوا : يا أيها العزيز مسّنا وأهلنا الضّر وجئنا ببضاعة مزجاة، فأوف لنا الكيل،وتصدّق علينا، إن الله

يجزي المتصدقين . قال : هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه اذ أنتم جاهلون ؟ قالوا : إنك لأنت يوسف . قـــال : أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا ، إنه من يتّق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين . قالوا : تالله لقد آثرك الله علينـا وإن كنا لخاطئين . قال : لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لـكم وهو أرحم الراحمين . اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه إبي يأت بصيرا ، وأتوني بأهلكم أجمعين .

ولما فصلت العير قال أبوهم : إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفنّدون . قالوا : تالله إنك لفي ضلالك القديم . فلما أن جـاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا . قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ؟ قـالوا : يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين ، قـــال : سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم .

فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال : ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش ، وخرّوا له سجّدا ، وقال : يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً ، وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن ، وجاء بكم من البدو من بعد أن نزع الشيطان بيني وبين إخوتي ، إن ربي لطيفٌ لما يشاء إنه هو العليم الحكيم .

ب ـ قصص الأنبياء أو الاسرائيليات

رأينا أن الاسلام قد فتح صفحة جديدة في تاريخ النثر العربي ،

بما أنزل على نبيه من قرآن حوى أحسن القصص ، وقد نشأ على هامش تفسير القرآن قصص وأخبـــار ، وروايات وحكايات و حدّث بها وهب بن منبّه ، وكعب الأحبار ، وهما يهوديان من اليمن أسلما ، وحملا معهما إلى الاسلام كثيراً من الأخبار المنقولة عن التوراة وغيرها من الكتب الدينية ، مع شيء كثير من التوسيع وتضخيم الحوادث الخارقة ، وذكر التفاصيل الخرافية ، مما يؤلف في مجموعه نوعاً من الميثولوجية جديداً مبنياً على أساس من تعاليم الدين الجديد ، ومستمدّاً عناصره من الأساطير اليهودية في الغالب ؛ وقد دعي هذا النوع من القصص في التاريخ بـ « الاسرائيليات » وظل منتشراً على ألسنة الرواة حتى جمعه الثعلبي (توفي ٤٢٨ هـ) في كتابه قصص الأنبياء المسمّى بـ « العرائس » ، والكسائي في كتابه الذي يدعى أيضاً « قصص الأنبياء » .

تحكي الاسرائيليات هـذه حكاية الخليقة ، وبدء التكوين ، وكيفية خلق الماء والعرش ، والسماوات والأرضين ، والشمس والقمر ، والجنة والنار ، والإنس والجن والملائكة ، وآدم وحواء والحية والطاووس وإبليس ، وتاريخ حياة الانبيـــاء والرسل وأخبار الاولين ، بأسلوب تختلط فيـه الحقيقة بالخيال ، ويمتزج الدين بالأسطورة امتزاجاً تصحبه روح التهويل والمبالغـة التي لا تعرف القصد ، وتسعى وراء ابتداع العجائب ، شأن ما يحدث في الأدب الملحمي ، وتفيض به قصص بابل وأشور ، وأساطير اليونان والرومان ، وسائر آداب الشعوب القديمة التي تصنّف

ميثولوجيتها على هذا النحو[1] . وفي مايلي طائفة من هذه القصص تشهد بما ندّعي، وهي مختارة من الكتابين الآنفي الذكر عرائس المجالس » للثعلبي ، و « قصص الأنبياء » للكسائي .

قصة خلق الأرض

روى الرواة أن الله تعالى لما أراد أن يخلق السماوات والأرض، خلق جوهرة خضراء أضعاف طباق السماوات والأرض ، ثم نظر إليها نظر هيبة فصارت ماء ، ثم نظر الى الماء فغلا وارتفع منه زبد ودخان وبخار ، وأرعد من خشية الله ، فمن ذلك اليوم يرعد الى يوم القيامة ، وخلق الله من ذلك الدخان السماء ، وخلق من ذلك لزبد الأرض ؛ ولما خلق الله الأرض كانت طبقاً واحداً ، ففتقها وصيّرها سبعاً ، ثم بعث الله من تحت العرش ملكاً فهبط إلى الأرض ، حتى دخل تحت الأرضين السبع ،

١ ــ تصنف الميثولوجية عادة بحسب المشاكل التي جابهت عقل إنسانها القديم . ويذهب أحد الباحثين (أنيس فريحة ، مجلة الابحاث ، السنة ١ العدد ٤) الى الظن بأن أهم هذه المشاكل كانت كما يلي : كيف تكون الكون ؟ وكيف خلق العالم ؟ وكيف خلق الانسان ؟ وكيف ظهرت الصناعات ؟ وكيف تولد الحيوان ؟ وكيف خلقت النجوم والشمس والقمر ؟ وما هو أصل الموت ؟ وفي الاجوبة عن هذه الأسئلة تقع أساطير الخلق والتكوين ، وحكاية الأبطال الذين سرقوا المهن والصنائع عن الآلهة ، والشمس والقمر والنجوم كيف كانوا آلهة وأبطالا على الأرض ثم رفعوا الى العلاء وكيف وقع الانسان في الخطيئة فكان عقابه الحكم عليه بالموت الخ .. وأكثر هذه الأجوبة كما تعلم قصص رائعة متماثلة عند سائر الشعوب .

فوضعها على عاتقه، إحدى يديه في المشرق والأخرى في المغرب، باسطتين قابضتين على قرار الأرضين السبع حتى ضبطها ، فلم يكن لقدميه موضع قرار ، فأهبط الله تعالى من أعلى الفردوس ثورا له سبعون ألف قرن ، وأربعون ألف قائمة ، وجعل قرار قدمي الملك على سنامه ، فلم تستقرّ قدماه ، فأحدر الله ياقوتة خضراء من أعلى درجة من الفردوس ، غلظها مسير خمسمئة عام، فوضعها بين سنام الثور إلى أذنه ، فاستقرت عليهـــا قدماه ، وقرون ذلك الثور خارجة من أقطار الأرض وهي كالحسكة تحت العرش ، ومنخر ذلك الثور في البحر ، فهو يتنفس كل يوم نفساً ، فاذا تنفـّس مدّ البحر ، وإذا ردّ نفسه جزر ، ولم يكن لقوائم الثور موضع قرار ، فخلق الله تعــالى صخرة خضراء ، غلظها كغلظ سبع سماوات وسبع أرضــين ، فاستقرت قوائم الثور عليها ، ولم يكن للصخرة مستقر ، فخلق الله تعالى نوناً وهو الحوت العظيم ، اسمه لوتيا وكنيته بلهوت ولقبه بهموت ، فوضع الصخرة على ظهره وسائر جسده خال ، قال : والحوت على البحر، والبحر على متن الريح ، والريح على القدرة ، وثقل الدنيا وما عليها حرفان من كتاب الله ، قال لها الجبّار : كوني فكانت ..

قصة صالح وثمود

قال كعب الأحبار : لما أهلك الله قوم عــاد وثمود ،عمّرت ثمود الأرض ؛ وكانوا عشر قبائل. كل قبيلة عشرة آلاف رجل،

وكل رجل تحت يده عشرة آلاف رجـل سوى النساء ؛ وكانوا أولي قوة وأولي بأس ؛ وكانت منازلهم الحجر ، بـــين الحجاز والشام في وادي القرى ؛ وكان اسم ملكهم جندع بن عمرو بن القيل ؛ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً ، طول كل بيت منهـا مئة ذراع ، وعرضه مثل ذلك ؛ وكانوا يصفحونها بصفـــائح الحديد مسمّرة بمسامير النحاس .

فلما كان بعـــد أعوام كثيرة اجتمع كثير منهم إلى ملكهم جندع ، وقالوا له : أيها الملك ، نحن نريد أن نتخذ لأنفسنا إلها نعبده خاصة ، لم يكن مثله لقوم عاد ، ولا لقوم نوح . فأذن لهم بذلك ، فانطلق القوم إلى جبل هناك ، فصنعوا منه صنماً عظيماً ، وجعلوا وجهه كوجه الانسان ، وعنقه كعنق البعير ، ويـــديه ورجليه كأيدي الخيل ، وصفحوه بصفائح ذهب ، وجعلوا على رأسه تاجاً من الذهب ؛ مرصعاً بالجواهر ، ثم قربوا له قربانـاً ، وخرّوا له سجّداً .

ثم أمر الملك أن يتخذ لهذا الصنم بيتـــاً ، لبنة من ذهب ، ولبنة من فضة ، له سقف من صفائح الذهب مرصّع بالجـواهر ، وأمر أن يتخذ حوله بيوتاً يكون فيها سائر الأصنام ؛ وأمر بتعليق قناديل الذهب بسلاسل الفضة ، ووضع ذلك الصنم على سريره ، وسائر الأصنـــام على كراسيهم . وكان المقرّب لذلـك الصنم رجل يقال له رباب بن صغير العاديّ ، ثم قرب له الملك رجـــلا من أشراف ثمود ، أسمه كانوه بن عبيد ، وجعله على هذه الأصنام ليخدمها فعبدها الشيوخ حتى هرموا ، والصبيان حتى شاخوا ،

وهم مع ذلك في نعيم وسرور ، حتى إنّ مواشيهم كانت تحمل في السنة مرتين ، وأشجارهم تحمل في السنة مرّتين .

قال : فبينما القوم ذات يوم في بيت الأصنـام ، إذ تحرّكت نطفة صالح في ظهر أبيه ، وصار لها نور ساطع وهاتف ، قال : هذا نورصالح ،قدجاء الحق وزهق الباطل ، هذا صالح بن كانوه ، يصلح الله به الفساد. ففزع كانوه من ذلك فزعاً شديداً ، وذهب إلى الصنم الأعظم ليسجد لهفنكس الصنم رأسه ، ونطق شيطانه من جوفه يقول له: يا كانوه في ظهرك نبي ، وقد استنارت الأرض لنور ظهرك ، ثم سقط الصنم على وجهه ، ووقع التاج على رأسه .

فلما بلغ الملك ذلـك أمر بقتله فأعمى الله أبصارهم ، وجفت أيديهم ، وأرسل ملكاً فاحتمله ووضعه في وادي الأشجار ؛ فأقام هناك ثلثمائة عام ، فأقاموا للأصنام خادماًيقال له داوود بن عمرو ، وكانت رعوم امرأة كانوه كثيرة البكاء لفقد زوجها ، فبينما هي ليلة قد بكت كثيراً ، إذ وقع في وسط دارها شيء فخرجت تنظر من هو ، فاذاهو طائر على هيئة الغراب رأسه أبيض ، وظهره أخضر ، وبطنه أسود ، وهو أحمر الرجلين والمنقار ، وفي عنقه درّة معلقة بسلسلة من ذهب ؛ فقالت : أيها الطائر : ما أحسن خلقك ، لقد هربت من صاحبك؟ فقال الطائر : ماهربت من صاحبي ، ولكني أنا الغراب الذي بعث الله إلى قابيل حين قتل أخاه هابيل ، فأريته كيف يواري سوأة أخيه ؛ فأما بياض رأسي فانه شاب لما رأيت قابيل قتل هابيل ،وأما حمرة منقاري ورجليّ فاني غمستها في دم هابيل الشهيد ، وأما خضرة ظهري فمن لمس الملائكة والحور العـين ،

وأنا من طيور الجنة . ولكن أتحبين أن أرشدك الى زوجــك كانوه ، فاني عارف بموضعه ، فقالت : ومن لي بذلك ؛ فقد غاب عني مئة سنة . فقال : لا تنكري ذلك ، فـان الله على كل شيء قدير ؛ فتقلدت بسيف بعلها ، ثم عمدت تتبع الطائر ، فطوى الله لها البعيـد ، حتى وصلت إليه وهو نائم ، ثم نادى الطـــائر : يا كانوه بن عبيد ، قم بقدرة الله الذي يحيي العظـــام ، فاستوى قاعداً ، فلما رأى زوجته اعتنقها وسلم عليها ، فألقى الله عليها الشهوة وواقعها ، فحملت بصالح ، ثم بعث الله إليه ملك الموت وقبض روحه فمضت رعوم تتبع الطائر ، حتى أتت بلاد ثمود ، فلما كملت شهورها ، وضعته ليلة الجمعة يوم العاشوراء .

ولم يزل صالح في مهـد حتى نشأ وكبر ، فلما أتى عليــه من العمر عشرون سنة ، إذ سمع جلبة عظيمة ، فقال : يا أماه مــا هذه الضجة ؟ فقالت له : إن هذا ملك يقال له ملكين ، يغزونا في كل سنة ، ويأخذ أموالنا ، وهذه ضجة عسكره ، فلما سمع ذلك تقلد بسيف أبيه ، وسار الى القوم ، وصاح بهم ، فألقى الله الرعب في قلوبهم ، فمنهم من مات من صيحته ، ومنهم مــن ولى مدبرا ، وغنم صالح أموالهم ومواشيهم ثم رجع إلى أمه .

فلما أتى على صالح أربعون سنة ، نزل عليه جبريل ، وبشّره بالرسالة ، وقال له : اذهب إلى ثمود ، ومرهم أن يقولوا لا إله إلا الله وأنت صالح عبد الله ورسوله ، وأن يتركوا عبادة الأصنام ، فأقبل صالح إلى قومه ، وكان في يوم عيدهم ، وقد نصبوا الأصنام وزينوها بأحسن زينة ، وقرّبوا لهـــا القربان ، فنادى صالح ،

وقال : يا قوم قد جئتكم رسولاً ، وأدعوكم الى الشهادة أن لا إله إلا الله وأني صالح رسول الله ، ثم بلّغ جميع الرسالة . فقال له الملك : ياصالح ، كيف استخلصك ربك بالرسالة من بيننا ،وفينا من هو أشرف منك ؟ فقال صالح : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء فآمن به بعضهم وكفر بعضهم ؛ ثم بنى صالح مسجداً لنفسه ولمن آمن معه ؛ واستعان ببنيانه نفراً من الملائكة ؛ ونفراً من بني عمه ، وغرس على الباب شجرة السعادة آتاها له جبريل من الجنة وأنبع الله من أصلها عيناً من الماء العذب .

فلم يزل صالح يدعو قومه الى الله حتى دعاهم مئة سنة ، وهم لا يزدادون إلاّ عتوّاً وكفراً ؛ فعند ذلك عزم على الدعاء عليهم فخرج الى بعض الجبال وجعل يصلي فيه ؛ فرأى في الجبل كهفاً يسطع منه نور ؛ فدخل فيه ، ورأى سريراً من الذهب عليه ألوان من الفرش ، فطرح نفسه على الفرش ، فنام أربعين سنة ، لا يعرف أحد إلى أين توجّه صالح . فلما تم أربعون سنة انتبه صالح من نومه ، فأنصرف يريد قومه ، فنودي يا صالح ، إنك لما تعجّلت على قومك بالدعاء ، ضرب الله على أذنيك ، ونمت أربعين سنة ، والآن انطلق إلى قومك ، وادعهم إلى طاعة الله ، ولا تعجل فانّ ربك ليس بعجول ، فعلم صالح عند ذلك ما كان منه ، فخرّ ساجداً لله واستغفره .

ثم انصرف صالح إلى قومه ، ونادى : يا قومي ، قولوا لا إله الاّ الله وإني صالح نبي الله ، فلما قال ذلك ، تساقطت الأصنام على وجوهها ، ونطقت الدواب ، وقالت : جاء الحق

وزهق الباطل : فعند ذلك تكلم الملك جندع ، وقال : يا هذا من أنت ؟ فقال : أنا صالح بن كانوه ، فقال : قد كان صالح فينا زماناً طويلاً ، ثم غاب عنّا أربعين سنة ، فليس أنت بصالح بل أنت ساحر كذّاب .

وكان للملك وزير يقال له هربيل بن لقيم ، فقال : يا صالح ، قد علمنا أنك ناصح في مقالتك ، غير أنّا لا نحتاج إلى نصيحتك ، فانصرفْ عنّا ، فالتفت إليه صالح ، وقال : يا هربيل بن لقيم إنك تموت في وقت كذا وكذا ، وأهلك وأولادك في وقت كذا وكذا ، وأمّا نهار الغد فتموت فيه أمك وأبوك ، وإنك إن آمنت بالله أحياك الله ، وجعلك حجّة على آل ثمود ، فآمن به هربيل وأولاده وأهله ، فجاء صالح إلى قبرهم وأحياهم بإذن الله تعالى ، فلما عاين قومه ذلك ازدادوا كفراً وقالوا : ما هذا إلاّ ساحر ، فقال صالح : يا آل ثمود ، إني رسول الله اليكم جميعاً فآمنوا بي لتسلموا من العذاب ، فقال القوم : يا صالح ، إنا نريد آية منك أن تخرج لنا من هذه الصخرة البيضاء ناقة ، فقال صالح : ذلك هيّن على ربي ، ولكن صفوها لي ، فأقبل داوود بن عمرو خادم الأصنام ، وقال : يا صالح ، إن كنت نبياً فأخرج لنا ناقة ذات ألوان ما بين أحمر يانع ، وأصفر فاقع ، وأخضر ناصع ، وأسود حالك ، وأبيض نقي ، يكون نظرها كالبرق الخاطف ، ورغاؤها كالرعد القاصف ، ومسيرها كالريح العاصف ، طولها مئة ذراع ، وعرضها مثل ذلك ، ولتكن ذات ضروع أربعة فنحلب منها ماءً ولبناً ، وخمراً وعسلاً ؛ فوثب رجل اسمه بحير

ابن الشكير وقال : يا صالح، أخرج لنا ناقة تكون هيفاء نيفاء دعجاء كحلاء ؛ ولتكن ذات لغام وسنام ، فإن أخرجتها كذلك صدّقناك برسالتك . فتقدم اليه رجل آخر اسمه لبين بن جوّاس وقال: يا صالح، أخرج لنا ناقة تكون يداها من الذهب، ورجلاها من الفضة ، ورأسها من الزبرجد، وعيناها من الياقوت، وأذناها من المرجان ؛ وليكن في موضع السنام قبة من الدرّ لها أربعة أركان مرصعة بانواع اليواقيت . فقال الملك : يا صالح ، أخرج لنا ناقة تكون ذات قرون ودم وعظام وعروق وعصب وشعر ولتكن مع ذلك كحلاء غضّاء بيضاء تحلب لبناً عزيزاً صافياً ، وليكن يتبعها فصيلها ، وتنطق وتشهد لك بالرسالة ولربك بالوحدانية .

فأقبل صالح على قومه وقال : فإن أخرجتها أتؤمنون بالله ؟ فقالوا : نعم بشرط أن يكون لبنها في الصيف بارداً ، وفي الشتاء حارّاً ، لا يشربه مريد إلاّ شفي ، ولا فقير إلاّ استغنى. فقال صالح : فإن أخرجتها أفتؤمنون بالله ؟ قالوا : نعم بشرط أن لا ترعى في مراعينا ، وانما ترعى في رؤوس الجبال ، وبطون الأودية ، وتترك ما على وجه الأرض لمواشينا ، وإن الماء لها يوم ولنا يوم ، وتدخل بالعشيّات ديارنا ، وتنادي كل واحد منا باسمه فيخرج ويضع ما يريد تحت ضرعها فيمتلىء لبناً من غير أن يحلب . فقال لهم صالح ؛ قد اشترطتم عليّ شروطاً كثيرة ، وأنا أشرط عليكم أن لا يركبها أحد ، ولا يرميها بحجر ولا سهم ، ولا يمنعها من شربها ولا من المرعى .

فقالوا : لك ذلك يا صالح .

فأخذ عليهم المواثيق ، ثم صلى ركعتين ، ودعا الله تعالى ، فاضطربت الصخرة ، وتمخضت ، ثم سمع القوم دوياً كدوي الرعد ، ورأوا قبة من ياقوتة حمراء تنقض من الهواء ، ولها أربعة أبواب من الزبرجد الأخضر ، معلقة بسلاسل المرجان ، وانحدرت الى الصخرة ، فجعلت الصخرة تئن كما تئن المرأة عند الطلق ، والطيور قد اجتمعت عليها يظلونها بأجنحتها ويرشون عليها ماء بمناقيرها ، وكانت الناقة تدور في جوانب الصخرة كما يدور الولد في بطن أمه ، ثم انفلقت الصخرة ، وخرجت الناقه من جوفها كأنها قطعة جبل ، ووقفت بين يدي صالح ، وبعينها شعاع ونور ، وعليها زمام من اللؤلؤ ، ومن سنامها إلى ذنبها سبعمئة ذراع ، وعرضها سبعون ذراعاً ، ولها أربعة أضرع ، لكل ضرع اثنتا عشرة حلمة ، وما بين الحلمة إلى الأخرى عشرة أذرع ، وطول كل قائمة من قوائمها مئة وخمسون ذراعاً ، وهي تنادي وتقول : لا اله الا الله صالح رسول الله .

ثم تقدم جبريل ، ومسح على بطنها ، فخرج منها فصيلها على صفتها فآمن به الملك وخلق كثير من أشراف القوم : ثم عمد بقية القوم إلى شهاب أخي الملك و [illegible] على أنفسهم مكان جندع . قال وكانت الناقة تخرج في رؤوس الجبال فلا تمر بشجرة إلا تدلي اليها أغصانها ، فتأكل ثم تهبط إلى الأودية ، فترعى هناك ، وتترك ما على وجه الأرض لأنعام آل ثمود ؛ فإذا مشت دخلت الى المدينة تنادي بلسان فصيح : من أراد اللبن فليخرج ، فكانو

يخرجون اليها بالأواني يضعونها تحت ضرعها فتمتليء من جميع ما يطلبونه ، ثم ترجع الى مسجد صالح وهي تسبح الله ..

قصة إبراهيم

... وطلع نجم ابراهيم ، وله طرفان : أحدهما بالمشرق ، والآخر بالمغرب ، وكان له ضياء كضوء الشمس والقمر ، فرأى نمرود النجم ، وسأل المنجمين عنه ، فقالوا: أيها الملك ، إن هذا النجم يدلُّ على مولود قد حملت به أمُّه ، ويكون هلاكك على يديه ؛ فأخذ في قتل الأطفال حتّى قتل ما لا يحصى عدده ، وابراهيم يزداد في بطن أمه نوراً وجمالا ، حتّى أتى عليه أربعة أشهر ، فرأت أمّه في المنام ناراً خرجت من تحت ذيلها حتّى بلغت عنان السماء ، وانتشرت في الدنيا ، فلما أتى على إبراهيم في بطن أمه تسعة أشهر، رأى نمرود في المنام رؤيا هائلة ، فانتبه فزعاً ، ودعا بالمنجمين وقال : إني رأيت البارحة في المنام ناراً نزلت من السماء ، لها دخان ، فدنت من باب قصري وقالت : يا نمرود، قل معي لا إله إلا الله ابراهيم رسول الله وإلاّ أحرقتك، ثم دنت مني وأحرقتني ، فقال له المعبرون : هذه الرؤيا تدل على غلام يكون هلاكك على يديه ، فلا تخلّ مولوداً إلاّ قتلته .

وبادر نمرود واهل مملكته يطوفون على الولدان ويقتلونهم ، حتى دخلوا بيت تارخ وقالوا لزوجته : معك حمل ؟ فقالت : لم يكن معي شيء من الحمل ؛ وأعمى الله أبصارهم ، وكانوا كلما لمسوا جنبها ينقل ابراهيم إلى الجنب الآخر ثم إلى الظهر ، فلم يتبين

لهم فيها حمل ، وتركوها فأخذها الطلق ، وأقبل عليها ملك وقال لها . انطلقي معي إلى غار النور الذي ولد فيه إدريس ونوح ؛ فانطلقت اليه ، فإذا فيه فرش ووسائد وآلات الولادة؛ فخفف الله عليها الطلق ، وولدته في ليلة الجمعة ليلة عاشوراء من الشهر المحرم. فلما سقط الى الأرض استوى قائماً وقال بأعلى صوته : لا اله إلا الله وحده لاشريك له، فبلغ صوته الى المشرق والمغرب ثم قطع جبريل سرّته ، وغمسه في نهر الرضوان ، وكساه ثوباً أبيض ثم مسح ثدي أمه لبناً وعسلاً ، وكان يمصّ أصابعه الخمس فتدرّ له الإبهام عسلاً ، والسبّابة خمراً، والوسطى لبناً ، والبنصر زبداً ، والخنصر ماءً؛ ثم عادت إلى منزلها وقلبها يرتاح الى ولدها ابراهيم ، فلما كان اليوم الثالث ، خرجت من بيتها تريد الغار سرّاً ، فنظرت إلى الوحوش والسباع على باب الغار فاغتمّت وظنت أن ولدها من الهالكين ، فلما دخلت عليه ، رأته على فرش السندس ، وهو مكحول ، فعلمت أن له رباً يحفظه ، ثم رجعت إلى منزلها ، وكانت تحضر اليه في كل ثلاثة أيام مرة ، فتنظر اليه نظرة وتعود .

فلما استكمل أربع سنين أتاه جبريل بكسوة من الجنة ، وسقاه شربة التوحيد كيلا يشرك بالله شيئاً وقال له : الآن اخرج من الغار منصورا ، فخرج إبراهيم وفي يده قضيب من الذهب ، وانطلق الى بيت أبويه ، فاستأذن في الدخول فأذن له، فلما دخل نظر تارخ الى الحسن والجمال ، وجاءت أوشا وعانقته وقالت : ولدي وعزة نمرود : فقال إبراهيم : يا أماه ، لا تحلفي

بعزة نمرود فأن العزة لله الذي خلقني وسواني ورباني وحفظني وهداني ، فارتعد تارخ من كلامه وقال: يا ولدي لا تذكر ملكنا وآلهتنا بسوء ، فانه هو الذي خلقني وخلقك ، فغضب ابراهيم عند ذلك وقال :تعساً لك يا شيخ .

ثم قام تارخ وأتى الى نمرود ، وسجد له وقال : أيها الملك إنّ الذي كنت تخاف منه فأنه هو ولدي ، وذلك أنه ما ولد في داري ، ولا بعلمي ، وقد جاءني وهو غلام ، غير أنه يزعم أنّ له رباً سواك ، فارتعد نمرود وقال : منذ كم هو عندك ؟ قال : منذ ثلاثة أشهر ، فقال نمرود لأعوانه : ائتوني به . فانطلقوا اليه . وجاؤا به إلى نمرود وقد زين نمرود قصره ومجالسه بزينة عجيبة . فالتفت ابراهيم يميناً وشمالا وقال : اللهم انصرني عليهم . ثم قال : يا قومي ماذا تعبدون من دون الله ؟ فقالوا : نعبد الأصنام . قال : هل يسمعونكم إذ تدعون إليهم أو ينفعونكم ؟ قالوا : بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . فذكر ابراهيم صفة الله . والتفت الى أبيه وقال:واغفر لأبي إنه كان من الضالين .

فاقبل عليه نمرود وقال : يا ابراهيم ، اتبع ديني واعبدني فاني أنا الذي خلقتك ورزقتك . فقال ابراهيم : كذبت . إن خالقي ورازقي هو الله فبهت الناس ووقع في قلوبهم محبة لابراهيم ثم قال نمرود لتارخ : إن ولدك هذا صغير لا يدري ما يقول ، فخذه وأحسن إليه عسى أن يرجع عما هو فيه .

فأخذ تارخ بيده ، وقال له : يا بنيّ إن لي عليك حقاً ، وإني

أسألك أن تبيع الأصنام كما يفعل أخوك ، فقال أبراهيم : كيف أبيع ما أبغضه ؟ ثم أخرج له صنماً كبيراً وصنماً صغيراً وقال له : بع الكبير بكذ والصغير بكذا . وكان إبراهيم يخرج ومعه غلامان ومعهما الصنمان فيقول : من يشتري ما لا يضر ولا ينفع ؟ فكان لا يقبلها منه أحد . ثم كان يغمس الصنمين في الماء ويقول اشربا ، وكان يشد الحبل في أرجلها ويجرهما والناس ينظرون إليه ولا يجسرون أن يقولوا له شيئاً . فأقبل عليه شيخ وقال : بعني صنماً أعبده ، فقال له : يا شيخ إنما قعدت ها هنا مستهزئاً بها وهي لا تعبد ، فتركه الشيخ ، وتقدم إلى أخيه هارون واشترى منه صنماً ، واحتمله على عنقه ، فسقط وانكسر ، فرجع الشيخ إلى هارون وقال : بعتني إلهاً مكسوراً ، فقال له ابراهيم : ما تعمل بهذا المنكسر ؟ فمضوا إلى تارخ فقال له تارخ : اذهب به واعبده فقد جوزت لك عبادته؛ ثم جاءت إلى ابراهيم عجوز وقالت : يا إبراهيم بعني صنماً ، فأخرج لها الصنمين وقال: اختاري هذا الكبير فهو أكثر حطباً ووقوداً ، فقالت : ما أريده للوقود ، وأنما للعبادة فقد كان لي إله وسرق في جملة ثياب كثيرة ، فقال إبراهيم : إن إلهاً لا يسرق ، ولو كان إلهاً لحفظ ثيابك ونفسه أيضاً ، لكن لو عبدت رب السموات والأرض لرد عليك ثيابك . فقالت : إن رأيت رحلي آمنت به ، فدعا ابراهيم ربه مرة بعد مرة ، وإذا الرجل بين يديه قد أتى به جبريل ، فقال لها إبراهيم : هذا رحلك في وسطه صنمك ، فأخذت العجوز رحلها ، وكسرت صنمها بحجر وآمنت بإله ابراهيم .

ثم جعلت تدور في مدينـــة كوثا ربّا وتقول : يا أيها الناس ، اعبدوا الله الذي خلقكم ورزقكم ؛ فبلغ ذلك نمرود، فأمر بقطع يديها ورجليهـا ، فلمّا فعل لها ذلك دعا ابراهيم لها بالصبر ، ثم أنزل الله عليها ملائكته ومعهم قبّة خضراء فقالوا لهـــا : أيتها المرأة قومي وادخلي هذه القبّة،وسقوها شربة من الجنّة ، وردّ الله عليها يديها ورجليها وحسنها وجمالها ، ثم استوت في القبـة وارتفعت إلى الهواء حتى وقفت على رأس نمرود وقالت:أنا فلانة التي فعلت بي ما فعلت ، ويلك يا نمرود ، أنا مصيري إلى الجنّة وأنت مصيرك إلى النار ، فآمن بابراهيم ما يزيـد على ألف رجل من أهـل كوثا ربّا ، فأمر بهم نمرود ونشروا بالمناشير ، وألقوا إلى الاسود ، فلم يأكلوهم ، ثم إلى الكلاب ولم يأكلوهم .

فلمّا تمّ لإبراهيم أربعون سنة نزل عليه جبريل ، وقال له : إنّ ربّك أرسلك إلى نمرود اللعين فجاهده ولا تفزع منه ، فاني أحفظك وأنصرك عليه ، فأقبل ابراهيم على باب نمرود ، ونادى بأعلى صوته : يا قوم ، قولوا لا إله إلا الله وإني ابراهيم رسول الله ففزع نمرود من ذلك ، وارتعد ودعا بالوزراء والبطارقـــة ، وأجلسهم في مجالسهم ، وأقام جنوده بحرابهم وأسلحتهم حوله ، وأقام الاسود والأفيلة صفوفاً عن يمينه وشماله،ثم ذكر ابراهيم الله، وأخذت الأسود والأفيلة والدواب والكلاب تذل وتخضع بين يديه فنادى : يا قوم ، قولوا لا إله إلا الله خالق كل شيء ، فقال له بعض الوزراء : من أنت أيها الرجل ؟ فقال : أنا ابراهيم بن تارخ رسول ربّ العالمين ، أدعوكم إلى عبادته . فقالوا : من ربّك ؟

قال : الذي خلق الناس أجمعين . فقال نمرود : ملكي أعظم من ملكه ، فقال ابراهيم : كذبت ، إن الملك والسلطان لله رب العالمين ، فعند ذلك اضطرب سرير نمرود، وكان في داره ديك ، فأقبل وقال : يا نمرود إن إبراهيم رسول رب العالمين ، وإن قوله الحق فاتّبعه ، ثم أقبلت بقرة ذات حسن وجمال وقالت : يا عدوّ الله لئن أذنَ لي ربي لنطحتك نطحة لا تأكل بعدها طيّباً ، فأمر بها نمرود وذبحت ، فأحياها الله وأنبت لها جناحين، وطارت في الهواء ؛ ثم التفت ابراهيم وإذا بجارية واقفة في الدار وفي حجرها ابنة صغيرة لنمرود ترضعها ، فوثبت الصبية من حجر أمها ، ووقفت نحو نمرود وقالت : يا أبتي ، هذا نبي الله إبراهيم ، فأمر بها نمرود وقطعوها قطعاً ، فقال ابراهيم : ومن آياتي أن أدعو هذه الأسود والأفيلة والكلاب وأسلطها عليك ، وآمر سريرك ويسقطك عنه ، وآمر تاجك ويطير عن رأسك ، وآمر قصرك ويقع عليك،إنما الله لا يعجزه شيء وهو على كل شيء قدير ، فقال نمرود : وما الذي بلغك من قدرته ؟ قال : إنه يحيي ويميت . قال نمرود : وأنا أحيي وأميت . فقال ابراهيم : وكيف تفعل ذلك ؟ قال : أخرج من السجن رجلاً وجب عليه القتل ، وأقتل الذي لا يجب عليه القتل . قال إبراهيم : إن ربي لا يحيي ولا يميت كذلك بل الميت يحييه والحي يميته من غير قتل ، ولكن يا نمرود إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت نمرود وأمر بإبراهيم أن يقيد فقيدوه وأدخلوه الحبس تحت الأرض ، فأجلسه السجان في أسوى المواضع ، وكانت

الملائكة تأتيه بطعام وشراب من الجنة ، وكلما قام في الليل إلى الصلاة يضرب عليه نور من رأسه إلى السماء .

وكان إبراهيم يذكر لأهل السجن حديث الجنة والنار، فتقدم إليه رجل من أهل السجن ، وقال له : أنا رجل من أبناء العرب وابن ملكهم ، قد كنا أربعة إخوة ، وكان الملك قد غضب علينا فحبسني ها هنا من جملتهم ، وحبس الثاني بالمشرق والثالث بالمغرب، والرابع باليمن، فهل يقدر ربك أن يجمع بيني وبينهم، فتوضأ إبراهيم وقام وصلي ركعتين ودعا الله تعالى فإذا هو بالأخوين من المشرق والمغرب قد انقضّا من الهواء على الأخ في السجن ، فتعجب أهل السجن من ذلك ، وبلغ الحديث إلى نمرود فدعا بهؤلاء الإخوة وقال لهم : من الذي جمع بينكم وبين أخيكم وفكّ عنكم القيود والأنكال ؟ فقالوا : إلهنا فعل ذلك بدعاء إبراهيم ، فدعا نمرود بالسحرة ، وقال لهم : أريد منكم ان تأتوني بالأخ الآخر من اليمن فقالوا : أيها الملك ، إنا لا نقدر على ذلك ؛ فقال نمرود لإبراهيم : ائتنا بالأخ الذي هو في اليمن كما فعلت بهذين الأخوين ، فدعا إبراهيم ربه ، وأوحى الله إليه : أنّ هذا الأخ قد مات ودفن في قبره ، فأخبرهم بذلك فلم يصدّقوه بل قال نمرود : ادع ربك أن يأتينا بقبره ، فدعا إبراهيم ربه فأمر الله الموكّل بالأرض أن يخرق الأرض إلى إبراهيم ، فخرج القبر من تحت أرجلهم وقال لهم : هذا قبر أخيكم ، فقالوا: إن كان ما تقول حقاً فادع لنا ربك أن يحييه وننظر اليه ونكلمه، فدعا إبراهيم ربه ، وإذا بالقبر قد انشقّ ، وخرج الرجل منه وهو يشتعل ناراً ، وقال : هذا جزاء من عبد الأصنام وكفر

بربه ، فآمن بإبراهيم رجل يقـــال له الحارث وخلقٌ كثير من القوم . فأمر نمرود بإلقاء المؤمنين في النار ، فلم تأكلهم النـــار ، فقال الحارث : إن كنت صادقاً يا ملعون فمر بإلقاء وزر ثت في النار وخففها عنهم ، فغضب نمرود ودعا بالنار والنفط فألقاهم فيها فاحترقوا حتى صاروا رماداً ، ثم بعث الله سحـابة بيضاء فأمطرت عليهم ماء ، وأنبت الله لحومهم وعظامهم وأحياهـم ، فوثبوا قياماً على أرجلهم يقرّون بعظمة الله ، فأمر بهم نمرود إلى الحبس الذي فيه العقارب والحيّات فبقوا في المطبق أربعين يوماً، وقد حبس الله عنهم تلك الحيات والعقـــارب ، وأوسع عليهم مجالسهم .

وأقبلت أوشا أم إبراهيم إلى نمرود وبكت ،وطلبت منه أن يعفو عن ولدها إبراهيم فعفا عنه، وأخرجه من المطبق ومن كان آمن معه ، فدعا نمرود بتارخ وقال : قد علمت أن ابنك ساحر ، وإني أحب أن يكون في داري مثله ، فخذه إليك ، وأدخله بيت الأصنام ، وتلطّف به ، عسى أن يميل إليهم قلبه فأتوّجه بتاج الكرامة ، وأزوّجه بابنتي ، ويكون وزيري الأكبر . فأخذ تارخ بيد ابراهيم ، وأخرجه من دار نمرود ، فلما توسّطا مدينة كوثاربّا ، نادى إبراهيم وقال : يا قوم ، قولوا لا إله إلا الله وإني إبراهيم رسول الله ، فكذّبوه وقالوا له : أمّا ما تأتينا به فهو السحر .

ثم أمسك الله عن القوم الغيث ، واستقرّ نمرود بالضيق ، فجمع الحبوب والأطعمة في السراديب ، وقدّر كفاية قومـه ،

فخـــرج إبراهيم إلى خارج المدينة إلى كثيب رمل ، ودعـــا ربه أن يجعله للمؤمنين طعاماً ، فأجاب الله دعوته . وجعـله طعاماً من أطعمة الجنة ، وكان المؤمنون ينالون منها ما يريدون، والكافرون يأخذون الطعام من نمرود حتى فني مـــا عنده فمال الناس عند ذلك لإبراهيم ؛ فبينما نمرود على باب قصره ، إذ أقبل إبراهيم بجراب فيه حنطة احتملها من الكثيب ، فقال له نمرود : يا إبراهيم : ماذا معك ؟ قال : هو طعام رزقني ربي ولمن آمن به وبي ، فقال : افتحه ، ففتح الجراب ، وضروب نمرود يده فيه، فاذا هو رمل أحمر ، ثم ضرب إبراهيم يده فأخرج حنطة فيقدر الفستق مكتوب على كل حبـة هدية الجليل إلى إبراهيم الخليل ، فعند ذلك قال نمرود : يا إبراهيم ، إنك قد أفسدت عليّ قومي فأخرج من بلدي هذا، فقال إبراهيم : أنا أحق بالمدينة منك لأنها بلد آبائي وأجدادي في القديم، وإنما جاء أبوك كنعان ونزل فيها ظالماً.

وانصرف إبراهيم إلى منزله ، وكان لأهـــل كوثاربا في كل سنة عيد يخرجون فيه إلى بعيد من البلد ، ويعبدون هناك أياماً، ثم يرجعون ؛ وكان نمرود يخرج في هذا اليوم مع سادات أهـل مملكته في زينة عظيمة ، فلما حضر ذلك العيد وأرادوا الخروج قالوا لإبراهيم : أفلا تخرج معنا إلى عيدنا ؟ فقال إني سقيم ، يعني من عبادة الأصنام ، فتولوا عنه مدبرين إلى عيدهم حتى لم يبق في بلدهم إلا الضعفاء والأطفال ، فدخل إبراهيم إلى بيت الأصنام ، وكان القوم قد وضعوا بين أيديها موائد الأطعمة فقال : مالكم لا تأكلون ولا تنظرون ولا تكلمون ؟ ثم أخذ فأساً فراغ عليهم

ضرباً باليمين، وجعل يكسر يد واحد ورجل آخر ورأس آخر حتى جعلهم قطعاً، ثم علّق الفأس في عنق الصنم الأكبر، وغرس رأسه في الطعام الذي بين يديه، ورجع إلى منزله.

أقبل القوم بعد فراغهم من عيدهم فقالوا: من فعل هـــذا بآلهتنا؟ قالوا: سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم، فقالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون، فلما أتوا به، قالوا: أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟ قال: بل فعله كبيرهم هذا فاسألوه إن كانوا ينطقون. فقالوا: قد علمت ما هؤلاء ينطقون، فقال إبراهيم: أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم؟ أفّ لكم ولما تعبدون من دون الله؟ فقال القوم: أيها الملك، أحرقه كما أحرق قلوبنا.

وكان لنمرود تنّور من حديد، فإن غضب على أحد من أهل مملكته، أمر أن يسجر التنور ويوضع الرجل فيــــه وهو حي فيذوب كما يذوب الرصاص، فأمر بسجر التنور، ثم ألقوه فيه فلم تضرّه النار شيئاً، فأخرجوه، وأمر بحفر حفرة واسعة، ثم أمر بجمع الحطب الكثير على الدواب حتى نفرت الدواب عن حمل الحطب إلا البغال فأعقمها الله عقوبة لذلك، فجمعوا الحطب سنين، الرجال والنساء والغلمان والولدان، ثم أضرموا النار، فالتهبت وعلا دخانها حتى انتهى مقـدار أربعمئة ذراع، وكان الطير إذا جاوزها يحترق فيخر ميتاً، فلم يعرفوا حيلة توصل إبراهيم إلى النـــار، فتصور لهم إبليس في صورة شيخ وقال لهم: مالـكم متحيرين يا قوم؟ فأخـبروه بالخبر. قال لهم: اتخـــذوا لـكم

منجنيقاً فعلمهم كيف يتخذونه ، ففعلوا ذلك ، ثم جعلوه في كفة المنجنيق عرياناً ، فضجت السماوات والأرضين والملائكة وقالوا : إلهنا ، هذا عبدك ورسولك يطرح في النار ، فأوصى الله اليهم إن استغاث بكم فأغيثوه ، وإن استغاث بي فاني غياث المستغيثين . فدعا ابراهيم ربه أن ينصره على عدوه فهبطت الملائكة وحفّوا بكفة المنجنيق، فهمّوا أن يرفعوه ، ولم يقدروا على ذلك ، فقال لهم إبليس : إن أحببتم ان يرتفع فأتوا بعشر نسوة وعرّوهن واكشفوا عن فروجهنّ ، ففعلوا ذلك فانصرفت الملائكة عن المنجنيق فرفعوه إلى الهواء أربعين ذراعاً فتلقاه جبريل في الهواء ، وقال له : يا إبراهيم ، ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا ، حسبي الله ونعم الوكيل . فقال الله : يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ، فبردت النار وذهب حرّها ، وأتاه جبريل بسرير من ذهب ، وألبسه لباساً من الجنة ، فرأى نمرود رجلاً في وسط النار قاعداً على سريره وعليه ثيابٌ خضر ، وعن يمينه رجل على أحسن الصورة وعن يساره مثله ، ومن حوله خلقٌ كثير ، فقال لأصحابه : كم ألقيتم في النار ؟ واحداً أو مئة ألف ؟ فقالوا : ابراهيم وحده . قال : فما هؤلاء الخلق الذين حوله ؟ فتعجبوا من ذلك. فقال نمرود : فأتوا إليه ، وأقسموا عليه بالله أن يخرج إليكم ، فأقسموا عليه فخرج وهو يخوض في النار وهي لا تحرقه، فقال له نمرود : ما أعجب سحرك ! فقال: ما هو سحر إنما هو من قدرة الله ! فقال نمرود : لأصعدنّ السماء ولأقتلنّ إلهك .

ثم أمر نمرود أن يتخذ له تابوتاً مربعاً يكون له بابان باب إلى السماء وباب إلى الأرض، ثم أمر بأربعة نسور فجوعهن ثلاثة أيام ، وأخذ عمودين من حديد ، وسمّرهما في أركان التابوت ، وعلّق عليها لحمة ، ثم شدّ أوساط النسور الى الرماح ، وحمل معه قوساً ونشاباً ، وقعد في التابوت وأطبق البابين فرفعت النسور رؤوسها ، ونظرت إلى اللحمة ، وحسبتها لحماً ، فطارت صاعدة ، وحملت التابوت حتى ارتفع في الهواء ، فقال لوزيره : افتح الباب الذي يلي الأرض، وانظر كيف هي . ففتحه وقال: أراها كأنها قرية . ثم فتح الباب الذي يلي السماء وقال : أراها كما رأيناها ونحن في الأرض ، فأطبق البابين وارتفعت النسور حتى ضعفت وكادت تسقط مع التابوت . فتلقاه ملك في الهواء وقال له : ويلك يا نمرود إلى أين تريد ؟ فقال : أنا أريد إله ابراهيم لأحاربه فكم بقي بيني وبينه ؟ فقال له : بين الأرض والسماء الدنيا مسيرة خمسمئة عام ، وسمك السماء كذلك ، وهي سبع سماوات بين كل سماء كما بين السماء والأرض ، فلما سمع الوزير ذلك خرّ مغشياً عليه إلى الأرض، وبقي نمرود وحده في التابوت، فأخذ القوس ووضع فيها سهما وقال : إن كنت ما أصلك يا إله إبراهيم فهذا السهم يصل اليك ، ثم رمى بالسهم إلى الهواء فيقال إنه رجع إليه وهو ملطوخ بالدم فقال : قد قتلت إله إبراهيم ثم ضرب جبريل بريشة منه التابوت وألقاه في البحر ، ثم قذفته الأمواج إلى ساحل البحر ، وخرج من التابوت وقد ابيضت لحيته ورأسه ، ثم سار من بلد إلى بلد حتى صار إلى مدينة كوثاربا

فدخلها ليلاً .

ولما أصبح دخل عليه الناس فانكروه لشيبه ، ثم عرفوه ، وبلغ ذلك ابراهيم ، فدخل عليه وقال: كيف رأيت قدرة ربي؟ فقال نمرود : قد قتلت ربك ! فقال ابراهيم : ربّي أجلّ من أن تقتله،ولكن هل لك أن تقاتلني غدا ? قال : نعم . فجمع نمرود جنوده ، وخرج ابراهيم وسبعون رجلاً من أصحابه الى الصحراء، ثم بعث الله البعوض على جيش نمرود فامتلأت الدنيا منه وأمات خلقاً كثيراً ، حتى إن الباقين مضوا إلى منازلهم ، وأوقـــدوا نيرانا ، وأغلقوا الأبواب ، ولم تغن عنهم شيئاً ؛ ثم أقبلت بعوضة إلى نمرود وقعدت على لحيته، فهمّ بقتلها فدخلت في أحد منخريه، وصعدت إلى دماغه وأكلت اللحم والمخ والدم، وجعلت تسبح الله حتى مضى أربعون يوماً لا ينام ولا يأكل ولا يشرب ، فاتخذ له مرزبة من حديد وأمر أعوانه أن يضربوا رأسه بها فكلّما ضربوا رأسه سكنت البعوضة ، وكان أعظم النـــاس عنده منزلة من يضرب رأسه بالمرزبة فلمّا مضى له أربعون يوماً آخر ضرب بعض وزرائــه على رأسه ، وكان ذا بأس شديـد ، فانفلع رأسه نصفين ، وخرجت البعوضة كفرخ الحمام وهي تقول : لا إله إلا الله ابراهيم رسول الله وخليله ، ومات نمرود أشرّ موتة وأرسل الله على قومه الزلازل فهدمت المدينة على أهلهـــا وعجّل الله أرواحهم إلى النار وبئس القرار .

ج - قصة المعراج

مرّ معنا أن الداخلين في الاسلام من ذوي الأديان الأخرى أنشأوا بتأثير اليهودية ميثولوجية دينية جديدة بنوها على أساس من تعاليم دينهم الجديد ، وقد آتت هذه الميثولوجية ثمارها في قصص الانبياء ، الآنف ذكرها . وتلحق بهذه القصص قصة من أشهر القصص الدينية تروي حادثتي الإسراء والمعراج المذكورتين في القرآن ، ولكنها تلبسها غلالة صفيقة من الاساطير اليهودية التي تسربت إلى كثير من المعتقدات الاسلامية في ما بعد .

تروي القصة انه « بينا كان النبي صلى الله عليه وسلم في بيت أم هاني ، فُرج سقف بيته ، فنزل منه الملك الذي هو جبريل ، ومعه ميكائيل ، وملك آخر ثلث لعلّه إسرافيل ، فأخرجه منه حتى أتى المسجد الحرام به ، فاضطجع فيه عند البيت وهو في الحِجْر او في الحطيم لأثر نعاس كان به ، ثم أخذه منه ، وهو بين النائم واليقظان ، وأوتي به زمزم الرفيعة الشأن ، فشقّ صدره الشريف شقاً . لم يجد له ألما للطافته من ثغرة نحره إلى عانته ، فاستخرج منه القلب الشريف المكرّم ، فشقّه ايضاً ، وغُسل كلّ منهما بماء زمزم ، لكونه يقوّي القلب ، ولأنه أفضل ماء ، ولأن أصله من جنة السماء ، ثم أتي بطشت من ذهب مملوءة علما وحكمة وإيمانا وإسلاما وسلما وإيقانا ، فأفرغها في فؤاده اللطيف ، ثم أطبقه وأطبق صدره الشريف ، وختم بين كتفيه بخاتم النبوة الأنور ، الذي نوره أبهى من نور النيرين

الشمس والقمر، ثم أخرجه إلى باب المسجد، وأتاه بالبراق الأرفع، وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى طرفه الألمع ، مسرجاً مهيئاً مُلجما ، فلما أراد النبي ركوبه امتنع عليه واستصعب فانتهره جبريل ، فاستحيا حتى ارفضّ عرقا ، ثم قرّ حتى ركبه النبي ، وأخذ بركابه جبريل وبزمامه ميكائيل ثم ساروا فكان جبريل عن يمينه، وميكائيل عن يساره ، وانطلق البراق يهوي به حتى أتوا بيت المقدس فنزلوا في بقعة وربط البراق عند المسجد بحلقته . ثم دخل النبي المسجد فصلى ركعتين للتحية ، ثم لم يلبث إلا يسيرا حتى امتلأ المسجد بالأنبياء والملائكة ، فصلى بهم النبي إماما ، وبعد ذلك أتي بالمعراج الذي تعرج عليه أرواح بني آدم من جنة الفردوس ، وهو كالسلّم ذو مراق يُرقى إليها ، مرقاة من ذهب ، ومرقاة من فضة ، منضّد باللؤلؤ ، وعن يمينه ملائكة ، وعن يساره ملائكة . فانطلق النبي وجبريل عليه صاعدين السموات السبع، يلقيان في كلّ منها الملائكة، وبعض الأنبياء، فيتحدث محمد اليهم، ويصلي فيهم . إلى أن أنتهيا الى سدرة المنتهي ، وهي شجرة نَبْقٍ فوق السماء السابعة عن يمين العرش ، نبقها من قِلال هَجَر ، وورقها كآذان الفيلة ، تكاد الورقة منها تُظلّ هذه الامة ، فلما غشيها من أمر الله ما غشيها وهو تجلّيه للرسول تغيّرت وفي رواية تحوّلت يافوتا وزبرجدا ، ثم دخل الرسول الجنة فإذا فيها قباب اللؤلؤ ، واذا ترى بها المسك ، ورمّانها كأنه الدّلاء (جمع دلو) عِظَما ، وبينما هو يسير فيها

إذا بنهر حافتــاه قباب الدرّ المجوّف ، وطينه مسك أذفر ، فقال جبريل هذا الكوثر ، وعرضت عليه النار فاذ فيها غضب الله وزجره ونقمه ، ولو طرحت فيها الحجارة والحديد لأكلتها ثم أغلقت دونه .. وظهر له جبريل عند السدرة على صورته التي خلقه الله عليها ، له ستمئة جناح ، جناح منهـا قد سد الافق والبطاح

ثم غشيته سحابة فيهـا من كل لون ، وتأخر عنه جبريل ، وانقطعت عنه أصوات من تحته من كل حي وكل قبيـــل ، فارتفعت به حتى ارتفع لمستوى علا يستوي عليه وبصعده سمع فيه صرير الاقـلام حال كتابتها تصاريف الاقدار . ثم تدلى له الرفرف ، وهو بساط أخضر قد سدّ الافق تغلب خضرته ضوء الشمس فصعد عليه ، إلى أن انتهى إلى المكان الأقدس ، واستقر لديه. فيه صار إلى حجاب الفردنية» وقرب من ثمة قوسين أو أدنى ، فطلب منـه العفو والغفران للأمة ، ففرض الله الصلاة لقاء ذلك على هذه الامة . وهنا عاد النبي أدراجه، بطريق الجنة هذه المرة ، وانتهى الى السماء الدنيا والمين على حاله لم يتقدم ، فركب واتى مكة ليخبر الناس حديث إسرائه ومعراجه .

هذه هي قصة المعراج باختصار، ولو كان المقام يتسع لسردناها لك بتفاصيلها ، ولتجلت لك فيها حينئذ نزعة أشدّ الى ذلك النوع من المبالغة التي وقعنا عليها في قصص الانبيـاء ، وبنفس اللغة ايضاً ، فملك الموت مثلاً ، رأسه تحت العرش ، وقدماه في تخوم الارض السابعة وملك آخر نصفه من ثلج ونصفه من نار ،

له ألف رأس ، في كل رأس ألف ألف وجه ، وفي كل وجه ألف ألف فم ، في كل فم ألف ألف لسان ، يسبح الله بألف ألف لغة لا يشبه بعضها بعضاً ، يقول منير البعلبكي : «فإذا أضفنا إلى ذلك جميعاً روح الترهيب التي تظهر في وصف ضروب العذاب المنزلة بالخاطئات من النساء والتي تجعل من الله جلاداً يعلق سيف النقمة الذي يقطر دماً بساق العرش ، أدركنا عظم تأثير الميثولوجية اليهودية على قصة المعراج (وليس حادثة المعراج) وقلنا إلى نسبتها لكعب الأحبار ، أو وهب بن منبه ، او لأحد غيرهما من أصحاب الاسرائيليات » إلى أن يقول : « ومهما يكن من شأن هذه القصة وزمن تأليفها ومؤلفها ، فلا شك في قيمتها العظيمة كقصة من أقدم القصص العربية وأشهرها، وكنموذج أول لكل ما وضع بعد من قصص رحل فيها أصحابها إلى السموات ، كرسالة الغفران وغيرها [1] »

د - أخبار عبيد

شعر بعض الخلفاء ، في عهد بني أمية خاصة ، بالحاجة في سياسة الدولة إلى تعرف أخبار الملوك في الأمم الأخرى وسياستهم ونظامهم . وقد روى المسعودي عن معاوية انه كان يستمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها، والعجم وملوكها، وسياستها لرعيتها ، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة ؛ ثم تأتيه الطرف

١ - منير البعلبكي - مجلة العروة العدد ١ السنة ٤

الغريبة من عند نسائه ، من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة، ثم يدخل فينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعد ، فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان مرتبون ، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فتمرّ بسمعه كل ليلة جملة من الأخبار والسّير ، والآثار . وأنواع السياسات[1]

ويقال إن من بين الذين كانوا يقرأون له «أخباريا» يمنيا اسمه عبيد بن شرية الجرهمي ، اتخذه هذا الخليفة قصّاصاً خاصاً يحيي به لياليه في سماع الأقاصيص ، ولا يكتفي بالسماع ، بل يأمر بتدوين ما يخبر به في الكتب .

بقي لنا من آثار هذا الشيخ لرواية جملة من القصص والأخبار اشتمل عليها كتاب «التيجان» لعبد الملك بن هشام المطبوع بحيدر آباد في الهند . وهي تؤلف فصلاً كبيراً من فصوله بعنوان: «أخبار عبيد بن شرية الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها على الولاء والكمال والحمد لله على كل حال »

يبتدىء الكتاب بذكر السبب الذي من أجله استدعى الخليفة الجرهمي ، وكان من أفضل لذاته في آخر عمره المسامرة وأحاديث من مضى . فقال له عمرو بن العاص : لو بعثت إلى الجرهمي الذي بالرقة من بقايا من مضى ، فإنه أدرك ملوك الجاهلية وهو أعلم من بقي اليوم في أحاديث العرب وأنسابها ، وأوصفه لما مرّ عليه من تصاريف الدهر . فبعث اليه معاوية فأتى في محمل بعد أيام كثيرة وشدّة شوق من معاوية اليه ، فدخل عليه شيخ كبير

١ ـ راجع « فجر الاسلام » ص ١٥٦

السن، صحيح البدن، ثابت العقل ، منتبه ، ذرب اللسان، كأنه الجذع، فسلم على معاوية بالخلافة ،فرحب به معاوية وقال له : إني أردت اتخاذك مؤدباً لي ، وسميراً ومقوّما ، وأنا باعث إلى أهلك أنقلهم الى جـواري ، فكن لي سميراً في ليلي ووزيراً في أمري . قال : يا أمير المؤمنين ، رأيتني ورأيت رَحْلي ، فقال له معاوية: فذلك أخف لمؤونتك ، وأحلى للزومك ، فأمر به معاوية فأنزله في قربه ، وأخدمه ، وأمر من يجري وظيفته ، ووسع عليـــه وألطفه . فاذا كان ذلك في وقت السمر ، فهو سميره في خاصته من أهل بيته ، وكان يقصّر عليه ليله ، ويذهب عنه هموصه . وأنساه كل سمير كان قبله ولم يخطر على قلبه شيء إلا وجد عنده شيئاً وفرحاً ومرحاً . فاذا به كان يحدّثه وقائــع العرب وأشعارها وأخبارها ، فيأمر أهل ديوانــه أن يوّقعوه ويدوّنوه في الكتب .

فبينما هو ذات يوم في مجلس لمعاوية ، وفيــه عمرو بن العاص وجماعــة من قريش ، وقد أخذوا في الحديث ، وعبيد بن شرية يحدّثهم قال له معاوية : كم أتى عليكَ من العمر يا عبيد ؟ قال : كثير يا أمير المؤمنين ، كفاك أنه لم يبقَ جرهمي غيري ، أتى عليّ مئة سنة وخمسون سنة. قال له معاوية : هل شهدت دخول الحبشة ورجمها البيت الحرام ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، إنمــا كان ذلك بالأمس،ولقد أدركت عامة ملوك لخم وكندة وحِمْير وغسّان . قال له معاوية : حدّثني يا عبيد كيف كانت الجاهلية باليمن ، ولم يكن لمعدّ بن عدنان معهم ذكر ، ولم يظفروا منها

بطائل ؟ قال : يا أمير المؤمنين إنما كانت مضر بالأمس ، وكانت اليمن وملكت، ولم يكن مضر ولا معدّ ولا عدنان ولا إسماعيل. إنما اليمن من ولد هود واسمه بالسريانية عابر ، وبينه وبين إبراهيم عليه السلام ثمانمئة سنة ، وعاش صلوات الله عليه مئتي سنة ، وقيذار عاش مئة سنة وأربعين سنة ، ومضر من ولد قيذار بن إسماعيل بن إبراهيم ، فكيف حتى ولد عدنان ومعدّ ونزار ومضر وكيف حتى شعبت الآثار وانتشروا في البلاد . قال له معاوية : صدقت وبررت فخذ في حديثك يرحمك الله وبلغني عن حمير وسيرها في البلاد وملكها في مشارق الأرض ومغاربها ، وكيف كان ذلك تفخر العرب والعجم ، وعن افتراق ألسنة الناس وعن أهل بابل ، ومتى كان ذلك ؟ وكيف كان ذلك ؟ وسألتك أن لا تمرّ بشعر تحفظه في ما قاله أحد إلاّ ذكرته . قال : يا أمير المؤمنين ، لك في غير هذا الحديث ما يقصّر ليلك وتلذّ به في نهارك ، فانّ فيه ما تهوى وما لا تهوى ، ومغضبة وشغفاً للملوك ونعش المودّة . قال : عزمت عليك إلاّ اتبعت هواي ، وحدّثتني ما علمت ممّا أسألك عنه فأنت في جوار الله وذمّته وأمانٍ مني ومن غضبي ونعش مودّتي. قال جميع جلساء معاوية : ولك منّا ذلك من جميعنا . وأمر معاوية كتّابه أن يدوّنوا ما يتحدّث به عبيد بن شرية في كل مجلس سمر فيه مع معاوية . قال عبيد : سل يا أمير المؤمنين [1] ، وكان معاوية يسأل وعبيد يجيب . سأله : من العرب العاربة ومن العرب

١ – التيجان ص ٣١٢ – ٣١٤

المستعربة ؛ وسأله عن يعرب وقحطان وأمم غابر الدهور والأزمان ، حتى انتهى إلى القصة التالية ، وهي في نظرنا من أمتع القصص التاريخي بحادثتها المثيرة ، وبارتباط هذه الحادثة بالبيئة، وصلتها بأخلاق العرب وعاداتهم، لم يكتف فيها الجرهمي بالسرد والتقرير، وإنما أضاف إليها من عند نفسه ، وقصد فيها، على ما يبدو لنا ، إلى فكرة تكمن وراء الحادث التاريخي ،وهي الفكرة التي يظهر فيها الصراع الانساني ضد القوي الشرّيرة التي تغلب على الناس ، فتنتهك حرماتهم ، وتستبيح حقهم ؛ يصوّرها هذا الشيخ بأسلوب ذي وحدة ومعنى نستطيع أن نزعم أنه معنى إنساني ، يتجه اتجاهاً ثورياً ، يمثّل العرب في انقضاضهم على الظلم ، وغيرتهم على العرض، وإبائهم كل ما يضيمهم ... وهذه هي القصة أخيراً كما وردت ، وقد رأينا أن نسميها « قصة أنتقام » .

قصة انتقام

.. وكان باليمامة حيّان ، يقال لهما طسم وجديس ، وهما ابنا لاوذ بن إرم بن سام بن نوح ، وهما من العرب العادية . قال وكان طسم ظلوماً غشوماً، لا ينهاه شيء عن هواه ، مع إضراره بجديس ، وتعدّيه عليهم ، وقهره إيّاهم ، وإذلاله لهم ؛ فثبت في ذلك عصراً من دهره ، وقد غير عليهم النعمة ، وانتهك الحرمة .

وكانت بلادهم أفضل البلاد وأهناها ، وأكثرها خيراً ،

وأقربها مسيراً ؛ ولهم أصناف الثمار من النخيل والأعناب ، في في دار أنيقة وقصور مصطفة .

فلم يزل ملكهم على ذلك حتى أتته امرأة من جديس ، وزوج كان قد فارقها ، فأراد قبض ولده منها ، فأبت عليه حتى دار بينهما كلام ، فارتفعا إلى الملك عمليق . وكان اسم المرأة هزيلة ، واسم زوجها قاشرا ؛ فلما وقفا بين يدي الملك ، سألهما عن حججهما : فقالت هزيلة : أيها الملك ، إني امرأة حملته تسعا ، وأرضعته سبعا، ولم أر منه نفعاً، حتى اذاتمت أوصاله، واستوى وصاله ، أراد أن يأخذه كرها ، ويتركني ورها . قال زوجها : أخذت المهر كاملا ، ولم أجب منها طائلا ، إلا وليداً جاهلاً ، فافعل ما كنت فاعلاً .

قال فأمر الملك بالغلام أن يقبض منها، وأن يجعل في غلمانه، وقال لهزيلة : ابغيه ولداً ولا تنكحي أحداً . قالت هزيلة : أما النكاح فبالمهر ، وأما السفاح بالقهر ، ومالي فيها من أمر ، فأمر عمليق عند ذلك أن تباع هزيلة وزوجها ، ويرد على زوجها خمس ثمنها ويسترق، ويردّ على هزيلة عشر ثمن زوجها ويسترق؛ فقالت هزيلة في ذلك هذا الشعر ، وهي تقول :

أتينا أخا طَسْم ليحكم بيننـا فأبرمَ حكمًا في هزيلة ظالما
لعمري لقد حكمت لا متورّعاً ولا كنت في ما يبرم الحكم عالما
ندمت ولم أندم وإني لغِرّة وأصبح بعلي في الحكومة نادما

فلما بلغ قيلها عمليقا أمر أن لا تتزوج بكر من جديس حتى يبدأ بها فيفترعها قبل أن يتصل بها زوجها .

قال فأصاب القوم من ذلك ذل ذليل؛ فلم يزل ذلك يفعل بهم، حتى تزوجت امرأة منهم يقال لها عفيرة ابنة العفار الجديسية أخت الأسود بن عفار. فلما كانت الليلة التي تهدى بها إلى زوجها، انطلقوا بها إلى عمليق، ليبدأ بها قبل زوجها، ومعها القيان يغنين، وهنّ يقلن:

ابدي بعملاق وقومي فاركبي   وبادري الصبح لأمرٍ مُعْجِب
فسوف تلقين الذي لم تطلبي   وما لبكرٍ عنده من مهرب

قالت فدخلت العفيرة على عملاق فافترعها، وخلّى سبيلها، وخرجت إلى قومها، شاقّة ثيابها ودرعها على دبرها، وهي تقول في ذلك:

لا معشرٌ أذلّ من جديسٍ   أهكذا يُفعل بالعروس؟
لكلّ قِرْنٍ أشوسٍ عبوسٍ   عدمتكم يا سقط النفوس!!

ثم قالت لقومها: ويحكم! أيرضى بهذا الحرُّ من رجالكم وقد أعطى هذا المهر كاملا؟ والله ليأخذه الموت أهون عليه من أن يُفعل هكذا بعرسه؛ وأنشأت العفيرة ابنة عفار تحرّض قومها، وتذكر ما فعل بهم العملاق وهي تحثهم على الحرب:

أتصبح تمشي في الدماء فتاتكم   صبيحة زُفّت في النساء إلى البعل
فان أنتم لم تغضبوا بعد هذه   فكونوا نساء لا تغبّوا إلى الكحل
وهادونكم طيب العروس فأنتم   خلقتم لأثواب العروس وللغسل
فلو أننا كنا رجالاً وأنتمُ   نساءً لما كنّا نقرّ على الذلّ
فبعداً وسحقاً للذي ليس ناكفاً   ويختال يمشي بيننا مشية الفحل
فموتوا كراماً أو أميتوا عدوكم   بضرب تلظى كالضرام من الجزل

وإلاَّ فخلّوا بطنها وتحمّلوا إلى بلدٍ قفرٍ وهزلٍ من الهزل
ولا تجزعوا يا قوم للحرب إنما يقوم رجال للمعالي على رجل
فيهلك فيها كل وغدٍ موكّلٍ ويسلم فيها ذو النجادة والفضل

قال : فلما سمعت جديس قولها استحمقوا غضباً ، وتلظوا كَلَباً ، فقام الأسود بن العفار ، وكان سيداً مطاعاً فقال :

يا معشر جديس ، أطيعوني في ما أمرتكم وأدعوكم اليه ، فانه عزكم الدهر ، وذهاب الذل عنكم . قالوا : وما ذاك ؟ قال والله لتطيعوني او لأتكئن على سيفي هذا حتى يخرج من صلبي . قالوا : لك الطاعة علينا فما ذلك ؟ قال : إني صانع للملك وقومه طعاماً ، ثم أدعوه إليه ، فاذا هم أقبلوا يرفلون في حللهم ، نهضنا إليهم بأسيافنا ثم أخذ كل رجل منكم جليسه فضربه بسيفه . قالت العفيرة : لا تعتذرن يا أخي ، وبدروا القوم في ديارهم تظفروا وتقدروا ، فأبوا أن يطيعوها ؛ فقالت العفيرة :

لعمرك ما في الغدر إذ تركبونه وفاءٌ ولا عذر وما فيه من حسنٍ
رأيت لواء الغدر في كل مجمع من الناس نصباً للمذلة واللعن
ولا خير في الأقوام حتى يكاثروا بناهضة الأبطال قرناً إلى قرن
فان مرام الغدر ياقوم فاعلموا صغار بتقصير من الغدر في الأمن

وقالت العفيرة في ذلك ايضاً :

لا تغدرنّ فانّ الغدر منقصة وكلُّ امر له غبٌّ وإن ظفرا
إني أخاف عليكم مثل تلك غدا وفي الأمور بنا عذر لمن عذرا
كرّوا عليهم كراراً في مصارخة فكلكم باسلٌ نرجو له الظفرا

وباشروا القوم ضرباً في ديارهم
ولاتقارقوهم حتى تهدموا القصرا!

فأجابها أخوها الاسود وهو يقول :

إنا لعمركِ ما ُنبدي مناهزةً
نخاف منها ظروف الحيل إن ظهرا
ففي التحيُّل للأقوام مدركة وكل أمر بها نرجو لها الظفرا
كفى لديك فلا تبغي لعاقبة عن الذي قد رآه الرأي أو خطرا
فليس يمنع رأياً أن نـدبّره
زجر الزواجر حتى نركب الخطرا
فان تلاقوا على بغي ومظلمة
ضرباً يبين أكف القوم والقصرا!

قالوا صنع الأسود طعاماً ثم دعا الملك وقومه من طسم ، فأقبلوا يرفلون في حللهم ، ثم دفنت جديس أسيافهم في الرمل حيث وضعوا الطعام ، فلما أتتهم طسم ، وثبوا الى أسيافهم وشدوا على عملاق وأصحابه ، فقتلوهم حتى أفنوهم جميعاً.

٥ ـ قصص الحب والغرام

شاعت هذه القصص في عصر بني أمية وأول العصر العباسي. وكان مصدرها الحجاز وباديته، ومكة والمدينة والطائف خاصة. ذلك أن الأمويين كانوا قد أغرقوا مدن هـذا القطر بالأموال ، وأوسعوا على أهلها بالعطاء ، مراعاة لمكانتهم ، واصطناعا لهم ، ورغبة في إبقائهم بمعزل عن الحياة السياسية العملية . فانصرف

أهل هذه المدن عن الاشتراك في الحياة العامة ، وفرغوا للحياة الخاصة ، فصفقوا ولهوا ، وأحبوا ما وسعهم أن يحبوا ، وغنوا قصائد حبهم ، ونسج الناس حول هذه القصائد القصص ، وعقدوا لها مجالس الانس والطرب ، وكان لنا من أخبار عمر ابن أبي ربيعة والعرجي ، ووضّاح اليمن والأحوص أمتع القصص وأشهى الحكايات التي تعرض لنا نماذج من الحياة الاجتماعية في الحضر ، وتطلعنا على جانب من عيش أهله الخنثين المترفين ، وتهتّك نسائه وفسادهن ، ولهوهنّ حتى الصبح ، يضمهن هذا تارة ، ويفدّين ذلك تارة ، ويتعرضنّ لآخر حتى يشبّب بهنّ .. وبقي الناس في البوادي منعزلين عن حياة اللهو والمرح التي حال بينهم وبينها فقرهم ، وعدم استعانة الأمويين بهم في حياتهم السياسية ، فزهدوا وعفّوا ، وانصرفوا عن الحياة العملية في الإسلام إلى أنفسهم ، واستسلموا إلى هذا النوع من العيش الساذج البسيط الذي يمتلىء بالفراغ ويقضي فيه عرب البادية وقتهم برعي الماشية ، وفي الحب ، وفي وصف عواطفهم وإرسال شعرهم الغرامي ، نساعدهم على ذلك الفراغ ، وحرارة البيئة ، وإقفارها من وسائل المتعة ، وقيامها على التلاقي والفراق ، ممّا هيأ الجو لظهور القصص الغرامي الذي تفيض به أنفس المحبين حسرات ، وتتسايل رقة وشوقاً ، وتتجلى نفسية البدوي ، وحسّه الدقيق ، وإدراكه للجمال ، وفناؤه في محبوبته ، وبلوغه في ذلك درجة الجنون .

وها نحن هنا نعرض لك باختصار موجزاً لأهمّ هذه القصص

التي يعتقـد طه حسين « أنها لا تقل شأناً عمّا نرى من فنون القصص الغرامي في الادب الحديث [1] » بعضها ممّا اخترعه الخيال اختراعاً مطلقاً ، وبعضها ممـا عمد فيه القصّاصون إلى الأخبـار فوصلوا بعضها ببعض تفسيراً لشعر شاعر ، أو تلهية لهم. وبعضها الآخر مما ألف تأليفاً أخذت فيه المادة من الحياة الواقعة، ورتّب ترتيباً ظهر فيه حسن الذوق ، وظهرت الاجادة ، وخصوصاً في وصف البشر العاديين في حوادث حياتهم اليومية ، وفي صلاتهم المألوفة ، وفي عواطفهم التي تمثل ما يجدون من حس وشعور.

مأساة عاشق

خرج أناس من بني حنيفة يتنزهون إلى جبل لهم، فبصر فتى منهم يقل له عباس بجارية فهويهـا ، وقال لأصحابه : والله لا أنصرف حتى أرسل إليها ، فطلبوا إليه أن يكفّ وأن ينصرف معهم فأبى ، وأقبل يراسل الجارية حتى وقع في نفسها ، فأقبل في ليلة إضحيانة [2]، متنكباً قوسه وهي بين إخوتها نائمة، فأيقظها فقالت : انصرف ، وإلاّ أيقظت إخوتي فقتلوك : فقال : والله للموت أيسر مما أنا فيـه . ولكنْ لله عليّ إن أعطيتني يدك حتى أضعها على فؤادي أن أنصرف. فأمكنته من يدها ، فوضعها على فؤاده ثم انصرف !

فلما كان من القابلة أتاها وهي في مثل حالها، فقالت له مثل

١ ـ طه حسين « حديث الأربعاء » ص ١٧٨
٢ ـ إضحيانة : مقمرة .

مقالتها ، وردّ عليهـا وقال : إن امكنتني من شفتيك أرشفهما انصرفت ثم لا أعود إليـك . فأمكنته من شفتيها فرشفهما ثم انصرف . فوقع في قلبها منه مثل النار. ونذر به الحي[1] فقالوا : ما لهذا الفاسق في هذا الجبل! انهضوا بنا إليه حتى نخرجه منه. فأرسلت إليه : إن القوم يأتونك الليلة فاحذر . فلما أمسى قعد على مرقب ومعه قوسه وأسهمه . وأصاب الحيّ من آخر النهار مطر وندى فلهوا عنه .

فلما كان في آخر الليل وذهب السحاب وطلع القمر خرجت وهي تريده وقد أصابها الطلّ فنشرت شعرها وأعجبتها نفسها ، ومعها جارية من الحي ، فقالت : هـل لك في عباس ؟ فخرجتا تمشيان ، ونظر إليها وهو على المرقب فظن أنها ممّن يطلبـه ، فرمى بسهم فمـا أخطأ قلب الجارية ففلقه ! وصاحت الأخرى فانحدر من الجبل واذا هو بالجارية في دمها فقال :

نعب الغراب بما كرهت ولا إزالة للقـــدر
تبـكي وأنت قتلتهـــا فاصـبر وإلاّ فانتحر

ثم وجـأ [2] في أوداجه بمشاقصه [3] ، وجاء الحي فوجدوهما مقتولين [4] . »

١ ـ نذر به الحي : علموا به .
٢ ـ ثم وجأ : ضرب .
٣ ـ المشاقص جمع مشقص وهو نصل السهم اذا كان طويلا غـير عريض .
٤ – راجع عيون الأخبار ج ٤ ص ١٣٣ و ١٣٤

قصة وضاح اليمن وأم البنين

أحبت أم البنين (زوجة الخليفة الوليد بن عبد الملك) وضّاحاً وأحبّها وضاح ، وكانت بينهما دعابة ، ثم جاوز الأمر الدعابة الى ما هو شرٌ منها في ما زعموا قالوا : وأهدي إلى الوليد جوهر أعجبه فأراد أن يهديه إلى أم البنين ، فأرسله إليها مع خادم له ، ودخل الخادم على الملكة مفاجأة ووضاح عندها ؛ قالوا : فأسرعت الملكة إلى صندوق فأخفت فيه صاحبها ، ثم أخذت الجوهر من الخادم وكانَ هذا قد رأى ما صنعت فطمع فيها ، وأراد أن يستغل ما يعلم فطلب إليها أن تمنحه حجراً من هذا الجوهر ، قالوا : فأبت عليه ذلك وسبّته ؛ فأنصرف محنقاً حتى بلغ الخليفة فأنبأه بما رأى ، فأظهر الخليفة تكذيبه وأمر به فقتل ، ثم نهض من فوره فدخل على الملكة ، فأذا هي تتمشط ، فجلس على الصندوق الذي وصفه له الخادم ، وأخذ يتحدث إلى الملكة في ملاطفة حتى سألها أن تهدي إليه هذا الصندوق فلم تستطع ردّه ، فأمر بالصندوق فاحتمل إلى مجلسه فوضعه فيه ، ثم دعا عبيداً له فأمرهم فحفروا بئراً عميقة ، فنحيّ البساط وحفرت البئر إلى الماء. ثم دعا بالصندوق فقال : يا هذا ، إنه بلغنا شيء إن كان حقاً فقد كفنّاك ودفنّاك ذكرك وقطعنا أثرك إلى آخر الدهر ، وإن كان باطلا فانا دفنا الخشب ، وما أهون ذلك ! ثم قذف به في البئر ، وهيل عليه التراب ، وسوّيت الأرض ، ورُدّ البساط إلى حاله ، وجلس الوليد عليه ، ثم ما رئي بعد ذلك اليوم

لوضّاح أثر في الدنيا إلى هذا اليوم [1] .

قصة العرجي وأم الأوقص

قالوا : مرّ العرجي في بعض نزهته بأم الأوقص ، وكان يتعرض لها، فاذا رآها رمت بنفسها وتستّرت منه ، وهي امرأة من بني تميم ، بصر بها في نسوة جالسة وهنّ يتحدثن ، فعرفها وأحب أن يتأملها من قرب ، فعدل عنها ولقي أعرابياً من بني نصر على جمل له ومعه وطبا لبن، فدفع إليه دابّته وثيابه ، وأخذ قعوده ولبنه ولبس ثيابه ، ثم أقبل على النسوة ، فصحن به : يا أعرابي أمعك لبن؟ قال نعم ، ومال إليهن وجلس يتأمل أم الأوقص ، وتواثب من معها إلى الوطبين ، وجعل العرجي يلحظها وينظر أحياناً إلى الأرض كأنه يطلب شيئاً وهن يشربن من اللبن . فقالت له امرأة منهن ? أي شيء تطلب يا أعرابي في الأرض ، أضاع منك شيء ؟ فقال : نعم ، قلبي ! فلما سمعت التميمية كلامه نظرت إليه وكان أزرق فعرفته فقالت : العرجي بن عمر ورب الكعبة ! ووثبت وسترها نساؤها وقلن: انصرف عنا لا حاجة بنا إلى لبنك .

قصة قيس بن ذريح ولبنى

قال الراوي : رأى قيس لُبْنى وتحدّث إليها في بعض أسفاره فأحبها وأرادها له زوجة ، فمنعه أبوه من ذلك خوفاً على

---

[1] - راجع « الأغاني » المجلد السادس ص ٣١١ ـ ٣١٢

ثروته من أن تنتقل إلى قوم غير قومه ، فسعى قيس عند الحسين ابن علي – وكان أخاه في الرضاعة – ورجاه أن يتوسط بين أبيه وقوم لبنى ففعل الحسين وتمّ الزواج وأصبح به قيس ولبنى سعيدين هانئين .

ولكن أم قيس نغّصت هذه الهناءة ، ووجدت على لبنى وأضمرت لها الشر حين رأت قيساً ينصرف الى عشقها عن كل انسان وعن كل شيء حتى عن أمه .. فأقبلت على الشيخ أبي قيس والتزمت أذنه ، فما زالت به تحرضه وتغريه حتى وصلت إلى ما كانت تريد .

دعا الشيخ بابنه ، وجمع له مشيخة قومه ، وتحدّث إليه بما أوحته إليه امرأته . وكان قد انتهز لذلك فرصة صالحة ؛ فقد كان قيس اعتلّ وأشرف على الموت ، فلما برىء تحدّث إليه أبوه هذا الحديث بمحضر قومه ، ذكر له علته وإشرافه على الموت ، وأنه لا عقب له ، وأن هذه المرأة غير ولود ، وطلب إليه أن يتزوج امرأة أخرى لعل الله يرزقه منها ولداً يرثه ويرث ثروته ؛فأبى قيس ، وكره أن يسوء امرأته أو يتخذ لها ضرّة. قال أبوه : فتسرّ بالإماء . فأبى قيس،وكره أن يسوء امرأته بهذا النوع الآخر من الزواج . هنالك غضب أبوه ، وانتهى من الأمر إلى أقصاه ، فأقسم على ابنه ليطلق امرأته ، وأبى قيس ذلك . واشتد الخصام بينهما حتى اعلن الشاب إلى أبيه أنه يؤثر الموت على الطلاق . ثم أخذ يخيّر أباه بين خصال : عرض عليه أن يتزوج هو لعل الله يرزقه ولداً آخر

يخلد اسمه ويرث ثروته ؛ قال الشيخ : فما فيّ فضلة . فعرض عليه قيس أن يرتحل عنه ومعه لبنى ، وأن يفترض أن ابنه قد مات في علته التي برىء منها ؛ قال الشيخ : لا أرضى . قال قيس : فأترك عندك لبنى وأرتحل وحدي لعلي أسلوها ؛ فأبى الشيخ وأقسم لا يكنه سقف بيت أبداً حتى يطلقها .

وهنا بدأ الصراع عنيفاً بين الحب والواجب ، وأخذت تتنازع قيس هاتان العاطفتان القويتان: حبه لزوجه، وبرّه بأبيه. قال الرواي : فزعموا أن الشيخ كان إذا أضحى تعرض للشمس لا يظله منها شيء ، وأقبل ابنه فأظله بردائه ، وتلقي هو حرّ الشمس ، ولم يزل كذلك حتى يفيء الفيء؛ حينئذ ينصرف إلى لبنى فيعتنقان ويبكيان ويتبادلان ألفاظ التشجيع ، وتقول له لبنى : احذر يا قيس فتهلك نفسك وتهلكني ؛ فيؤكد لها وفاءه وولاءه وصبره ومضيّه في المقاومة .

كم انفق قيس من الدهر في هذا الصراع وهذه المقاومة ؟ يختلف الرواة ، ولكن أبا الفرج يذكر أن قيساً قاوم سنة أو سبع سنين ثم ألقى سلاحه ، وانتصر أخيراً البر على الحب ، ولم يستطع هذا الشاب أن يمضي في عقوق والده ، فضحى بامرأته ابتغاء مرضاة أبويه .

انتصر البرّ ، ولكن انتصاره لم يكن كاملاً ، بل قل إنه لم يكن إلا هزيمة منكرة ، فلم يكد قيس يطلّق لبنى ، حتى طلّق معها عقله وأمنه وسعادته ، وكاد يطلق الحياة . أصابه أول الأمر ذهول أو شيء يشبه الذهول ، فلم يصدّق أنه طلّق

لبنى ، وخيّل اليه أنه لم ينطق بهذه الكلمة التي أراد الله أن تقطع أوثق الأسباب وأمتن العرى ، فلمـــا قضت لبنى عدّتها وأقبل أهلها فاحتملوها أنكر قيس ذلك ، ثم أخذ يتبـع ركبها حتى أنذر ، فوقف وأخذ يتبعها ببصره حتى غـابت عنه ، ثم عاد إلى بيتها وأخذ يتلمس آثارها فيقبّلها ويمرغ خدّه في ترابها ، ويسكب دموعه عليها وينشىء في ذلك أجمل الشعر وأرقـّه !!

تمّ الجزء الاول

ويليه الجزء الثاني

فهرس الجزء الأول

الفنون الأدبية عند العرب

سلسلة جديدة تتناول الأدب العربي، وتقسمه بحسب فنونه، مستوفية الكلام في كل فن على حدة من نشأته حتى اليوم.

وهي طريقة استقرائية حديثة اتبعت في البيئات الجامعية أولاً، ثم شاعت بين الدارسين، وأصبحت داخلة في صلب المنهج المدرسي في لبنان مثلاً. وإن دراسة الفنون وفق هذه الطريقة تفيد أكبر الفائدة إذ تتيح لنا أن نتتبع ظواهر نشأة كل فن ومراحل تطوره بحسب تسلسله في الزمان وتنقله في المكان، كما تمكننا بطريقة جمعها للنماذج التي دارت حول فن ما من فنون الأدب أن نتصل بالنصوص ونتعرف طريقة معالجتها فندرك نقط الالتقاء ونقط التباعد بين أديب وأديب وشاعر وشاعر. فضلاً عن فوائد أخرى كثيرة أهمها معرفة ما إذا كان الأدب العربي قد استوفى الفنون الأدبية المعروفة عند الغربيين أم قصر عنها...

منشورات دار الشرق الجديد - بيروت